النَّمِيرُ الدَّانِي

لِشَرْحِ مُقَدِّمَةِ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ القَيْرَوَانِيِّ

جميع الحقوق محفوظة
لدار ركائز للنشر والتوزيع

rakaez.kw@gmail.com

الطبعة الأولى
١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩م

التمهيد الداني

لشرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني

الشارح

الشيخ الأستاذ الدكتور

وليد بن محمد بن عبد الله العلي

المتوفى سنة (١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م)

رحمه الله تعالى

إمام وخطيب المسجد الكبير

وعضو هيئة التدريس بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت

قدم له

د. محمد بن حمد الحمود النجدي

د. محمد محمدي النورستاني

اعتنى به الفقير إلى عفو ربه

فايز متعب الذيابي

ركائز

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد للّه الذي أخرجنا بهذا الدين القويم من ظلمات الجهل والوهم، إلىٰ أنوار المعرفة والعلم، والصلاة والسلام علىٰ سيد الخلق، وحبيب الحق، الذي أخرجنا بسنته المطهرة من وحول الشهوات إلىٰ جنات القربات.

لقد خلق اللّه الإنسان في أحسن تقويم، وكرمه أعظم تكريم، سخر له الكون تسخير تعريف وتكريم، ووهبه نعمة العقل، ليتعرف به علىٰ خالقه العظيم، وجعل له فطرة سليمة تدله علىٰ خطئه الجسيم، وأودع فيه الشهوات ليرقىٰ بها صابرًا أو شاكرًا إلىٰ رب الأرض والسماوات، وجعل له الشرع الحنيف ميزانًا دقيقًا، فأحل له من خلاله الطيبات، وحرم عليه الخبائث، ومنحه حرية الإرادة، ليثمن عمله، كل ذلك... ليعرف ربه فيعبده، فيسعد بعبادته، في الدنيا والآخرة.

لهذا لا يَسْلَم الإنسان ولا يسعد؛ -وهما مطلبان ثابتان للإنسان في كل زمان ومكان- إلا إذا تطابقت حركته اليومية في حياته الدنيا، مع الهدف الحقيقي الذي خُلق من أجله، إذ تعدُّ معرفة هذا الهدف، والتحرك نحوه، شرطان أساسيان لبلوغ هذين المطلبين الثابتين.

فإن لم يبحث الإنسان عن الهدف الحقيقي الذي خُلق من أجله، أو توهّم هدفًا آخر لم يُخلق له، أو لم تأت حركته اليومية مطابقة للهدف الصحيح، كان القلق والاضطراب، وكان الضلال والشقاء، وتحققت له خسارة كبيرة أبدية.

وجُعل في كيان الإنسان قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح اللّه، فإذا سما عقله علىٰ شهوته أصبح فوق الملائكة المقربين، وإن سمت شهوته علىٰ عقله كان أسفل السافلين، وخلق فيه حاجات دنيا لا يقوم إلا بها، وخلق فيه حاجات عليا، لا يسعد إلا بتلبيتها، ومن أبرز هذه الحاجات العليا (العلم)، الذي هو القيمة المرجحة بين العباد، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: آية ٩]. وكذلك العمل، الذي هو ثمرة العلم الصحيح، ولذلك -يجمع الله تعالىٰ غالبًا- بين الإيمان -ومنه العلم- والعمل الصالح.

وجعل منحة العلم أعظم النعم، قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

بين يدي الكتاب:

وبعد؛

كان الشيخ الدكتور وليد العلي ﷾ قد قام بالتعليق علىٰ كتاب «قطف الجنىٰ الداني» للشيخ عبد المحسن العباد -حفظه الله-، ومعلوم أن الشيخ عبد المحسن العباد قام بشرح «متن مقدمة ابن أبي زيد» المنثورة، وأتبعها منظومة المتن الذي قام بنظمه الشيخ أحمد بن مشرَّف الإحسائي المالكي ﷾ المتوفي سنة ١٢٨٥هـ، وجاء هذا التعليق لتوضيح النثر والنظم معًا، فأتىٰ بلفظ سهل ميسور للمسلمين عامة ولطلبة العلم خاصة، والكتاب يحتوي علىٰ شرح لأصول الإيمان الستة التي جاء ذكرها في حديث جبريل ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، فالأصل الذي اعتمد عليه الشيخ ﷾ هو كتاب الشيخ العباد -حفظه الله-، والمتن يحتوي علىٰ الإيمان بالله وما له من الأسماء

والصفات، وأن ذات الله لا تشبهها ذات، وكذلك صفاته، وأن الله ليس له شريك ولا صاحبة ولا ولد، وأنه مستوٍ علىٰ عرشه استواء يليق بجلاله، وهو مع خلقه بعلمه، وبيان أن الإيمان عند أهل السنة اعتقادٌ وقولٌ وعملٌ، وعلىٰ الإيمان بملائكة الله المكرمين، وأنهم موكلون بمهام أوكلها الله إليهم، وعلىٰ الإيمان بالكتب التي أنزلها الله علىٰ رسله وآخرها القرآن الكريم، وأنه كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وعلىٰ الإيمان بالأنبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله إلىٰ أهل الأرض، وأنه لا يعلم عددهم إلا الله. وقد ورد أسماء خمسة وعشرين منهم في القرآن، وآخرهم هو محمد ﷺ رسول الله إلىٰ الإنس والجن، والإيمان باليوم الآخر، وهو ما بعد دار الدنيا من حين دخول القبر وسؤال الملكين وفتنتهم، والدخول إما إلىٰ الجنة أو النار، وأن الجنة والنار مخلوقتان، أعد الجنة للمؤمنين، والنار للعاصين، والورود علىٰ الصراط، وذكر الإيمان بالقضاء والقدر، خيره وشره حلوه ومره كلٌ من عند الله، ثم ختم بذكر الصحابة وأنهم أفضل القرون بعد النبي ﷺ، وأفضلهم الخلفاء الأربعة علىٰ الترتيب المذكور، ثم بقية العشرة، ثم بقية الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وأنه لا يجوز الطعن فيهم، وأنه يجب أن نذكرهم بكل خير، وأن ما وقع بينهم إنما هو اجتهاد منهم يدورون فيه بين أجر وأجرين، ووجوب طاعة ولاة الأمور من العلماء والأمراء في طاعة الله، وألا نشق عصىٰ الطاعة بين المسلمين.

هذه إطلالة عامة علىٰ ما ورد في الكتاب بشيء من الاختصار، وسوف ترىٰ ما فيه من درر قد حواها من علم غزير، نسأل الله التسديد والقبول.

سبب شرح الشيخ لهذا الكتاب:

لا شك لدىٰ الجميع أن الشيخ قد شرح هذا المتن مرات ومرات داخل الكويت وخارجها، والشيخ كانت له رحلات دعوية في آسيا وأفريقيا وأوربا يدعوا فيها إلىٰ الإسلام، فكان يشرح هذا الكتاب لعدة أسباب:

١- أن هذا الكتاب جمع جملًا من عقيدة أهل السنة والجماعة.

٢- سهولة عبارته مما يقرب هذه العقيدة للناس، وبخاصة طلبة العلم المبتدئين.

٣- سهولته علىٰ المسلمين الجدد، فيستطيعون فهم العقيدة الإسلامية بأقصر عبارة.

٤- أن السبب في تأليفه هو تعليم الأولاد الصغار في الكتاتيب عقيدة السلف، بعكس غيره من المتون التي شملت جميع أبواب العقيدة بكل تفاصيلها.

٥- بيان أن العلماء الربانيين جميعًا مع اختلاف مذاهبهم الفقهية معتقدهم واحد وهو عقيدة أهل السنة والجماعة.

٦- منهج أهل السنة والجماعة في العقيدة: اتباع الكتاب والسنة علىٰ فهم السلف الصالح.

٧- وسَطية أهل السنة والجماعة في العقيدة بين فرق الضلال.

٨- عقيدة أهل السنة والجماعة مطابقة للفطرة.

٩- السَّلفُ ليسوا مُؤوِّلةً ولا مُفوِّضة.

وأخيرًا...

إن سبب تفريغ هذه السلسلة: أن الشيخ ﷾ كان مجاهدًا بعلمه في داخل الكويت وخارجها، وقد ترك تراثًا من السلاسل العلمية التي قام بشرحها للمسلمين، تقريبًا للعلم الشرعي النافع حتىٰ يصل لكل مسلم علىٰ وجه الأرض، وهذا ما كان يدعوا إليه، وجولات الشيخ الدعوية خير شاهد علىٰ

ذلك، واستشهاد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في سبيل هذا الدين يدعونا إلىٰ نشر علمه الذي تركه لنا وأن نسير علىٰ الطريق الذي سار فيه، ومعلوم أن من الصدقات الجارية التي تنفع العبد بعد موته هو العلم النافع.

لذلك قررنا مستعينين بالله أن نبدأ بنشر هذا العلم مبتدئين بهذه السلسلة المباركة، إحياءً لعلم الشيخ، وأداءً لبعض حق الشيخ علينا، ونسأل الله أن يتقبله في الشهداء جزاء ما قدم لخدمة دينه، ونصرة سنة نبيه ﷺ.

ترجمة ابن أبي زيد القيرواني

اسمه:

الإِمَامُ، العَلاَّمَةُ، القُدْوَةُ، الفَقِيْهُ، عَالِمُ أَهْلِ المَغْرِبِ، أبو مُحَمَّدٍ عبد اللهِ بن أَبِي زَيْدٍ القَيْرَوَانِيُّ، المَالِكِيُّ، وَيُقَالُ لَهُ: مَالِكٌ الصَّغِيْرُ. وَكَانَ أَحَدَ مَنْ بَرَزَ فِي العِلْمِ وَالعملِ.

ذكر مكانه من العلم وثناء العلماء عليه:

كان أبو محمد رَحِمَهُ اللَّهُ إمام المالكية في وقته، وقدوتهم. وجامع مذهب مالك، وشارح أقواله. وكان واسع العلم كثير الحفظ والرواية. وكتبه تشهد له بذلك. فصيح القلم ذا بيان ومعرفة بما يقوله. ذابًّا عن مذهب مالك، قائمًا بالحجة عليه، بصيرًا بالرد علىٰ أهل الأهواء. يقول الشعر، ويجيده، ويجمع الىٰ ذلك صلاحًا تامًا، وورعًا وعفةً. وحاز رئاسة الدين والدنيا. وإليه كانت الرحلة من الأقطار، ونجب أصحابه، وكثر الآخذون عنه.

وهو الذي لخص المذهب، وضم كسره، وذبّ عنه. وملأت البلاد تواليفه. عارض كثير من الناس أكثرها. فلم يبلغوا مداه، مع فضل السبق، وصعوبة المبتدأ، وعرف قدره الأكابر. قال الشيرازي: وكان يعرف بمالك الصغير. وذكره أبو الحسن القابسي، فقال: إمام موثوق به في درايته وروايته.

وقال أبو الحسن علي بن عبد الله القطان: ما قلدت أبا محمد بن أبي زيد، حتىٰ رأيت السبائي يقلده. وذكره أبو بكر بن الطيب في كتابه، فعظم قدره. وشيّخه. وكذلك هو وغيره من أهل المشرق، واستجازه ابن مجاهد البغدادي، وغيره من أصحابه البغداديين.

قال أبو عبد الله الميورقي: اجتمع فيه العلم، والورع، والفضل، والعقل، شهرته تغني عن ذكره.

قال الداوودي: وكان سريع الانقياد الىٰ الحق. تفقه بفقهاء بلده. وسمع من شيوخه. وعوّل علىٰ أبي بكر ابن اللباد، وأبي الفضل الممسي، وأخذ أيضًا عن محمد بن مسرور العسّال، والحجام. وعبيد الله بن مسرور بن الحجام، والقطان والإبياني، وزياد بن موسىٰ، وسعدون الخولاني، وأبي العرب، وأحمد ابن أبي سعيد، وحبيب مولىٰ ابن أبي سليمان وآخرين.

ورحل فحجّ، وسمع من ابن الأعرابي، وابراهيم بن محمد بن المنذر، وأبي علي بن أبي هلال، وأحمد بن ابراهيم بن حماد القاضي.

وسمع أيضًا من الحسن بن بدر، ومحمد بن الفتح، والحسن بن نصر السوسي، ودرّاس بن إسماعيل، وعثمان بن سعيد الغرابلي، وحبيب بن أبي حبيب الجزولي، وغيرهم. واستجاز ابن شعبان، والأبهري، والمروزي.

وسمع منه خلق كثير. وتفقه عنده جلة. فمن أصحابه القرويين: أبو بكر ابن عبد الرحمن، وأبو القاسم البرادعي، واللبيدي، وابنا الأجدابي. وأبو عبد الله الخوّاص، وأبو محمد مكي المقري. ومن أهل الأندلس: أبو بكر بن موهب المقبري، وابن عابد، وأبو عبد الله ابن الحذّاء، وأبو مروان القنازعي. ومن أهل سبته: أبو عبد الله ابن العجوز، وأبو محمد بن غالب، وخلف بن ناصر، ومن أهل المغرب: ابن أمدكنو السجلماسي.

مؤلفاته:

له كتاب النوادر والزيادات علىٰ المدونة -مشهور، أزيد من مائة جزء- وكتاب مختصر المدونة -مشهور، علىٰ كتابيه هذين المعوَّل بالمغرب في التفقه-، وكتاب الاقتداء بأهل السنّة، وكتاب الذبّ عن مذهب مالك، وكتاب الرسالة، مشهور، وكتاب التنبيه علىٰ القول في أولاد المرتدين، ومسألة الحبس علىٰ ولد الأعيان، وكتاب تفسير أوقات الصلوات، وكتاب الثقة بالله، والتوكل علىٰ الله سبحانه. وكتاب المعرفة واليقين. وكتاب المضمون من الرزق، وكتاب المناسك، ورسالة فيمن تأخذه عند قراءة القرآن والذكر حركة، وكتاب رد المسائل، وكتاب حماية عرض المؤمن، وكتاب البيان عن إعجاز القرآن، وكتاب الوساوس، ورسالة إعطاء القرابة من الزكاة، ورسالة النهي عن الجدال، ورسالة في الرد علىٰ القدرية، ومناقضة رسالة البغدادي المعتزلي، وكتاب الاستظهار في الردّ علىٰ الفكرية، وكتاب كشف التلبيس في مثله، ورسالة الموعظة والنصيحة، ورسالة طلب العلم، وكتاب فضل قيام رمضان، ورسالة الموعظة الحسنة لأهل الصدق، ورسالة الىٰ أهل سجلماسة في تلاوة القرآن، ورسالة في أصول التوحيد، وجملة تواليفه كلها مفيدة بديعة، غزيرة العلم.

وذكر أنه دخل يومًا علىٰ أبي سعيد بن أخي هشام يزوره، فوجد مجلسه محتفلًا. فقال له: بلغني عنك أنك ألفت كتبًا. فقال له: نعم أصلحك الله. فقال له: اسمع مسألة؟ قال له أبو محمد: اذكر أصلحك الله، فإن أصبتُ أخبرتنا، وإن أخطأتُ علمتَنا. فسكت أبو سعيد. ولم يعاوده.

ورعه وتقواه:

كان أبو محمد بن أبي زيد رَحِمَهُ اللَّهُ من أهل الصلاح والورع والفضل. ذكر أنه رَحِمَهُ اللَّهُ قام ذات ليلة للوضوء فصبّ الماء من القلة في الإناء فانهرق، ثم صبّه ثانية فانهرق، ثم جرىٰ له ذلك ثلاثًا، فاستراب. وقال: تتمردون علينا؟ فسمع من يقول له، ولا يراه: إن الصبيّ بال، فرشّ علىٰ القلة، فكرهنا وضوءك منها.

ولما ألّف كتبه، علىٰ الفكرية، ونقض كتاب عبد الرحيم الصقلي، بتأليفه الكشف وكتاب الاستظهار، ورد كثيرًا مما تقلده من خارق العادات، علىٰ ما قدره في كتابه. شنّع المتصوفة، وكثير من أصحاب الحديث عليه ذلك. وأشاعوا أنه نفىٰ الكرامات. وهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يفعل، بل مَن طالع كتابه، عرف مقصده. فردّ عليه جماعة من أهل الأندلس، ومن أهل المشرق، وألفوا عليه تواليف معروفة، ككتاب أبي الحسن بن جهضم الهمداني. وكتاب أبي بكر الباقلاني. وأبي عبد الله ابن شق الليل. وأبي عمر الطلمنكي وآخرين. وكان أرشدهم في ذلك وأعرفهم بغرضه ومقداره، إمام وقته القاضي أبو بكر بن الخطيب الباقلاني. فإنه بيّن مقصوده. قال الطلمنكي: كانت تلك من أبي محمد نادرة لها أسباب، أوجبها التناظر الذي يقع بين العلماء، صحّ عندنا رجوعه عنها. ولم يزل في ظاهر أمره، إلا محض السوء في ابن الأمير، إلا أن حمل الكرامات، فيما بلغنا عن طبقات عندهم، علىٰ مجالس، لأكل أموال الناس، ودرسوها بالموافقة. وقد روىٰ منها وأملىٰ كثيرًا.

قال أبو القاسم اللبيدي: اجتمع عيسىٰ بن ثابت العابد، بالشيخ أبي محمد، فجرىٰ بينهما بكاء عظيم وذكر، فلما أراد فراقه، قال له عيسىٰ:

أريد أن تكتب اسمي في البساط الذي تحتك، فإذا رأيته دعوت لي. فبكىٰ أبو محمد، وقال: قال الله تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: آية ١٠] فهَبْني دعوت لك. فأين عمل صالح يرفعه؟

وفاته:

توفي أبو محمد رَحِمَهُ اللَّهُ وغفر له، سنة ست وثمانين وثلاثمائة. ورثاه كثير من أدباء القيروان، بمراث مشجية. منها قول أبي علي ابن سفيان في قصيدة:

غصت فجاج الأرض حتىٰ ما تُرىٰ أرض ولا علم ولا بطحاء

ما زلت تقدم جمعهم هربًا لهم في مركب حفت به النجباء

وذكر أن أبا محمد بن أبي زيد رَحِمَهُ اللَّهُ رُئي في مجلسه تحت فكرة وكآبة. فسئل عن سبب ذلك؟ قال: رأيت باب داري سقط، وقد قال فيه الكرماني، إنه يدل علىٰ موت صاحب الدار. فقيل له: الكرماني مالك في علمه؟ قال: نعم. هو مالك في علمه، أو كأنه مالك في علمه. فلم يقم إلا يسيرًا. ثم مات رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (٦/ ٢١٥) بتصرف.

ترجمة الدكتور وليد العلي[١]

اسمه ونسبه ومولده ونشأته:

الأستاذ الدكتور وليد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي الملا ابن أحمد بن نصر الدين الكوهجي العلي نسبة إلىٰ الكندري.

وعائلة الكندري ترجع إلىٰ الصنعة وأصلها من بر فارس وتحديدًا من كوهج[٢].

أستاذ العقيدة بجامعة الكويت.

ولد الشيخ ﷾ في يوم الخميس ٤ صفر ١٣٩٣هـ - ٨ مارس ١٩٧٣م في بيت جده عبد الله بمنطقة الصليبخات في محافظة العاصمة بدولة الكويت[٣].

ودرس مراحل التعليم الأولىٰ والثانية في منطقة الصليبخات، وأما السنة الأخيرة من المرحلة المتوسطة والمرحلة الثانوية فدرسها بمنطقة صباح السالم.

---

(١) عامة ما ورد في هذه الترجمة مأخوذ من مقالة: (الدمع السري علىٰ فقد الشيخ وليد العلي) للدكتور إبراهيم عبد الغفار الطاهري من موقع الألوكة، وكذلك بعض المواقع الإسلامية التي ذكرت جانبًا من حياة الشيخ ﷾.

(٢) لقاء علىٰ متن الطائرة الهندية في الهند مع الشيخ وليد العلي ﷾ يوم الأربعاء ٢١/ ذي القعدة ١٤٣٧هـ يوافقه ٢٤/ أغسطس ٢٠١٦م.

(٣) المصدر السابق.

بداية تلقيه التعليم:

درس الشيخ وليد مراحل التعليم من الروضة (روضة البحتري)، ثم الابتدائية مدرسة (العتيقي)، ثم أول ثلاث سنوات المرحلة المتوسطة (متوسطة الصلبيخات)، وتسمىٰ حاليًا بـ (متوسطة الأوزاعي)، ثم انتقل في آخر سنة إلىٰ منطقة صباح السالم، ودرس في (متوسطة اللقيان)، ثم درس السنوات الأربع من المرحلة الثانوية في (ثانوية الحسن بن الهيثم) في صباح السالم، وتخرج من الثانوية العامة قبيل الغزو الغاشم بأربعين يومًا تقريبًا[١].

وبعد أن أنهىٰ الشيخ ﷾ دراسته الثانوية قُبِلَ في قسم الكيمياء في كلية العلوم جامعة الكويت بعد أن تعذر القبول في إحدىٰ الكليات العلمية نظرًا للتخصص العلمي في جامعات السعودية رغبة منه في عدم الدخول في الكليات المختلطة، وقدر الله ﷻ وكان القبول في يوم الثلاثاء ٣١/ يونيو/ ١٩٩٠م[٢].

طلبه للعلم:

حفظه القرآن الكريم:

أثناء الغزو العراقي علىٰ دولة الكويت أتم حفظ القرآن الكريم علىٰ يد الشيخ عبد السلام بن حسين الفيلكاوي -أحد خريجي الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية-، وتعاهده بالاهتمام حتىٰ أتم حفظ القرآن بين يديه خلال فترة وجيزة لم تتجاوز الأربعة أشهر، وكان ﷾ يحرص علىٰ أن يمكث في

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

المسجد أثناء هذه الفترة من الفجر إلىٰ العشاء حفظاً ومراجعة، حتىٰ مَنَّ الله تعالىٰ عليه بحفظ القرآن الكريم كاملًا[١].

وممن درس عليهم في هذه الفترة خاله الشيخ فيصل بن يوسف العلي، الذي تلقىٰ العلم من علامة الكويت الشيخ محمد بن سليمان الجراح، ودرس عليه عددًا من الكتب كالآجرومية، وكتاب التوحيد وغيرها[٢].

دراسته الجامعية:

بعد تحرير الكويت سعىٰ الشيخ عبد السلام الفيلكاوي في حصول الشيخ وليد علىٰ القبول في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، حيث التحق بكلية القرآن الكريم، وتخرج منها خلال أربع سنوات، حيث أتم الدراسة متفوقًا، ويعد أول من تخرج من هذه الكلية من أبناء الكويت[٣].

وسجل بعدها في قسم التفسير في مرحلة الماجستير إلا أن إغلاق القسم في الجامعة الإسلامية حال دون ذلك؛ فالتحق بقسم العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين.

وحصل في عام ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م علىٰ بعثة دراسية من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت وعين معيدًا فيها.

حياته العملية:

بعد حصوله علىٰ درجة الدكتوراه عاد إلىٰ الكويت ليلتحق بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية في رجب ١٤٢٤هـ - سبتمبر ٢٠٠٣م، للتدريس فيها.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

وفي شوال ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م صدر قرار وزاري بتكليفه إمامًا وخطيبًا لمسجد الدولة الكبير؛ ويعد أول إمام وخطيب كويتي رسمي تسند له هذه المهمة.

و كانت له جهود كبيرة في مسجد الدولة الكبير، حيث كان له جهد في تدريس القران الكريم والعلوم الشرعية المختلفة، فقد كان مديرًا لمشروع قراءة الكتب السبعة، ومجالس قراءة كتب السنة، وغيرها من المناشط التي كان لها الأثر الكبير في إحياء الحركة العلمية.

وقد ختم عليه عدد من طلبة العلم القران الكريم كاملًا، منهم الشيخ القاضي فهد بن عبد المحسن الحسيني رَحِمَهُ اللَّهُ، الذي رافقه في سفره الأخير، ونال شرف التضحية في سبيل الدعوة مع الدكتور وليد -رحمهما الله تعالى-، والشيخ إبراهيم بن عبد الله الجامع والشيخ عيسىٰ بن صلاح العنزي.

عُين رَحِمَهُ اللَّهُ عميدًا مساعدًا للأبحاث والاستشارات والتدريب في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة الكويت.

موهبته في التدريس والرغبة الكبيرة في أداء عمله على أكمل وجه:

لقد وهبه الله عَزَّ وَجَلَّ موهبةً خاصةً في التدريس، فكان يأتي مبكرًا جدًّا إلىٰ الجامعة أيام محاضراته، ولا يدخل الطلاب القاعة إلا وجدوه حاضرًا، فقد كان درسه مشبعًا بالعلم والفوائد العظيمة، ولا يخرج الطالب من درسه إلا وقد استوعب الدرس جيدًا؛ لأنه كان يلخِّص الدرسَ أولًا، ثم بعد ذلك يقوم بالشرح بلا كللٍ ولا مللٍ، وكان من عادته إن وجد بعض الطلاب لم يستوعبوا الدرسَ أن يعيده لهم المرات تلو المرات إلىٰ أن يرسخ الدرسَ في أذهانهم.

ترسيخه العقيدة السليمة السلفية في نفوس تلاميذه:

كان رَحِمَهُ اللَّهُ يحرص علىٰ ترسيخ عقيدة التوحيد في نفوس طلابه، وكان يقول: لا يمكن الاجتماع إلا علىٰ عقيدة واحدة صحيحة سليمة، ولا يجمعنا إلا كلمة التوحيد: لا إله إلا الله؛ نطقًا واعتقادًا وعملًا. وكان يقول: لا يجدي الانتساب للإسلام ويكون هناك اختلاف في العقيدة.

غزارة علمه:

كان الشيخُ ذا علمٍ غزيرٍ في الفقه والحديث والقراءات والأدب، فمَنْ جلس معه رأىٰ منه غزارة العلم في شتىٰ العلوم، ولم يجلس معه أحدٌ إلا استفاد منه علمًا كثيرًا.

تحذيره من التقليد الأعمى:

كان الشيخ محبًّا لكتب المذاهب الأربعة، مستفيدًا من كتب السادة الحنابلة، ولم يكن مقلدًا لمذهبٍ معيّنٍ في المسائل، بل كان مرجحًا لما عليه الكتاب والسنة.

التميز في الأداء:

كان رَحِمَهُ اللَّهُ متميزًا جدًّا في تدريسه وإلقائه للمحاضرات؛ فقد كانت له طريقة عجيبة في التدريس، متنوّعًا في طريقة تدريسه وإلقائه للخطب والمحاضرات، وكان ينتقي كلماته، ويضبط ألفاظه، مستخدمًا السجع في كلامه مِن غير تكلُّف.

أخلاقه وورعه:

كان الشيخ صاحب ورع عظيم؛ وله مواقفٌ كثيرةٌ تدل علىٰ تورعه الشديد.

فمن ورعه: عدم قبول أي مقابل علىٰ مجالس سماع كتب الحديث الشريف التي كانت في المسجد الكبير، فقد كانت تعقد قبل سبع سنوات مجالس لسماع كتب الحديث الشريف، وكانت مجالس مباركةً عظيمة النفع.

ومن ورع الشيخ: أنه كان يجلس لإقراء القرآن الكريم لطلبة العلم مجانًا؛ حسبةً لوجه الله ﷻ ولِمَ لا يرتحل إليه طلاب العلم لتصحيح القراءة وطلب الأسانيد، وهو خريج كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

جمال خُلُقه، ونفسه المطمئنة المنشرحة:

إن جوهر الإنسان يسمو بجمال الخُلق؛ فكان الشيخُ ذا خُلُقٍ عظيمٍ مع تلاميذه، وكان من دأبه أنه إذا رأىٰ أحدًا يقول له: حفظك الله؛ بارك الله فيك... إلىٰ آخر هذه الجمل والكلمات الطيبة التي تدل علىٰ سمو خلقه. وتترك الأثر الطيب في نفوس مخاطبيه.

وكان مطمئن النفس منشرحًا كلما رأيتُه في أروقة كلية الشريعة؛ رأيتُه منشرحًا يقابل الجميعَ بابتسامته اللطيفة والجميلة.

تواضعه:

كان الشيخُ متواضعًا جدًّا مع شيوخه وتلاميذه.

وأغلب من كتب عنه بعد وفاته -رحمه الله تعالىٰ- نعتَه بالتواضع الجم،

وخفض الجناح للصغير قبل الكبير[١].

حلمه وصبره:

وقد رأىٰ الناس من صبره في دورات المجالس الشيءَ الكثيرَ؛ فكان يجلس الساعات الطوال علىٰ كرسيه ولا يغيّر جلسته وهو جالسٌ مقابل جموع طلبة العلم، وكان جالسًا ولا تحس منه التعب؛ لصبره وتجشّمه وتحمّله أعباء التعليم والتدريس.

غض البصر عن المحرمات:

يقول أحد من ترجم له: رأيتُ الشيخَ كثيرًا جدًا في ممرات وأروقة كلية الشريعة إذا مرت أمامه طالبة أو طالبات يخفض رأسه ويغض بصره.

التمتع بصحة جيدة والاهتمام بمظهره الخارجي:

كان رَحِمَهُ اللَّهُ يتمتع بصحة جيدة، وكان ذا نشاط وحيوية في مشيته وكلامه وحلِّه وترحاله.

وكان يهتم بمظهره الخارجي كثيرًا، فكان يحب لبسَ البشت في دورات السماع، وكان يختار ملابسه وغترته بعناية مِن غير سرف أو تبذير في تجمله.

قوة شخصيته وأسلوبه المقنع:

كان قويَّ الشخصية؛ تبعث رؤيته على الهيبة، وجعل الله في وجهه نورًا، وفيه سمت وصفات العلماء الكبار، وكلامه إن وجَّهَه لأحد أقنعه بأسلوبه الحواري الرائع والمقنع.

---

(١) منهم: الدكتور إبراهيم عبد الغفار في مقالة: «الدمع السري علىٰ فقد الشيخ وليد العلي».

بره بوالديه:

كان ﵀ يمتاز بخصال عديدة فكان بارًّا بوالديه، فعلاقته بوالديه حميمة جدًّا، ومع كثرة مشاغله فقد كان له وقت مخصص يوميًّا لزيارتهما والجلوس معهما، كذا علاقته الأسرية في النطاق العائلي.

الدعوة إلى الله تعالى:

وكان ﵀ منضبطًا في أوقاته وأعماله في الجامعة وغيرها، سليم الصدر، كثير الصمت إلا فيما يعنيه من أمور الخير، سريع التأثر بمعاناة الناس.

وامتازت علاقته بطلابه بالقرب والنصح والتوجيه، فقد كان موجهًا ومرشدًا، ويتفقد أحوالهم، وخاصة الوافدين إلىٰ الجامعة من الدول المختلفة، فلقد كانت له زيارات عديدة في سكن الطلبة، يقوم بشؤونهم، ويرفق بضعيفهم، ويشفع للمحتاج منهم، وكذلك في دعم الطلبة ومساعدتهم، فكانت صلته بهم لا تنقطع حتىٰ بعد عودتهم إلىٰ بلادهم.

حبب إليه مجال الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، ويعود الفضل بعد الله تعالىٰ عليه في هذا الأمر لفضيلة الشيخ أ. د. محمد بن خليفة التميمي، فكانت أول سفرة دعوية للشيخ ﵀ في عام ١٤١٧هـ - ١٩٩٦ م إلىٰ إندونيسيا لمدة ثلاثة أسابيع.

ثم توالت السفرات الدعوية إلىٰ تايلند وكمبوديا والفلبين، وشرق آسيا وأفريقيا وغيرها.

وكانت آخر هذه الرحلات الدعوية المباركة إلىٰ جمهورية بوركينا فاسو بأفريقيا، وذلك في شهر أغسطس ٢٠١٧م إلا أن يد الإرهاب الغادر قد طالته هو والشيخ فهد الحسيني -تقبلهما الله في الشهداء- في هذه الرحلة أثناء

تناولهم الطعام في أحد المطاعم، قاموا بقتلهما وثمانية عشر آخرين، فكانت فاجعة للكويت والمسلمين في أرجاء المعمورة، في فقد عالم من علماء المسلمين.

وفاته:

توفي في ١٣ أغسطس عام ٢٠١٧م، مع أخيه الشيخ فهد الحسيني، إثر هجوم إرهابي بمدينة واغادوغو عاصمة بوركينا فاسو، في رحلة دعوية للتعريف بالإسلام.

وقد أصدر سمو أمير دولة الكويت الأمير صباح الأحمد الجابر الصباح أوامره بنقل جثماني الفقيدين علىٰ طائرة أميرية إلىٰ الكويت، وقد وصلت الطائرة إلىٰ الكويت في الساعات الأولىٰ من صباح يوم الخميس ١٧ أغسطس ٢٠١٧م، وكان الدفن في نفس اليوم بعد صلاة العصر في مقبرة الصليبخات، وقد أمَّ المصلين في صلاة الجنازة الشيخ الدكتور عبد الرزاق العباد الذي حرص على القدوم من المدينة المنورة، وسط حشود كبيرة من المشيعين، وقد حضر الجنازة عدد من السياسين والعلماء يتقدمهم سمو الشيخ محمد العبد الله وزير الدولة لشئون مجلس الوزراء، ورئيس مجلس الأمة الكويتي مرزوق الغانم، والوزير محمد الجبري وزير الأوقاف والشئون الإسلامية، والدكتور فلاح مندكار أستاذ الشريعة بجامعة الكويت، وغيرهم من الساسة والعلماء، فرحم الله الشيخين الجليلين جزاء ما قدما للإسلام والمسلمين.

ونعاه علماء العالم الإسلامي بمرثيات، من هؤلاء الدكتور إبراهيم عبد الغفار الطاهري بقصيدة جاء فيها:

خَطْبٌ أَلَمَّ وَدَمْعُ الْعَيْنِ مُنْسَكِبُ ... وَالْقَلْبُ مِنْ أَلَمِ الأَحْزَانِ يلْتَهِبُ
وَمُهْجَتِي مَسَّهَا مِنْ بُؤْسِهَا سَقَمٌ ... عَلَىٰ فِرَاقِكَ يا مَنْ لَيْلُهُ قُرَبُ
كَمْ مُؤْمِنٍ بِالدُّعَا لِلشَّيْخِ مُنْشَغِلٌ ... لِأَنَّهُ لِلْعُلا يَدْعُوْ وَيَحْتَسِبُ
«وَلِيدٌ»؛ نَعْيُهُ فِي الْقَوْمِ فَاجِعَةٌ ... هَزَّتْ مَشَاعِرَنَا وَالدَّمْعُ مُنْسَكِبُ
لَئِنْ طَوَىٰ الْمَوْتُ نَجْمًا فِي تَأَلُّقِهِ ... فَنَشْرُ آثَارِهِ لِلاقْتِدَا يَجِبُ
مَحَاسِنٌ يُبْهِرُ الدُّنْيَا تَقَمُّصُهَا ... وَلِلْجِنَانِ بِفَضْلِ اللهِ تَنْتَسِبُ
وَالْمَوْتُ يُسْرِعُ لِلأَخْيَارِ يَقْبِضُهُمْ ... كَمَا رَوَىٰ أَحْمَدٌ وَالسَّادَةُ النُّجُبُ
إِنْ أَطْفَأَ الْمَوْتُ مِصْبَاحًا أَضَاءَ لَنَا ... ثُمَّ ارْتَقَتْ رُوحُهُ وَانْزَاحَتِ الْحُجُبُ
فَقَدْ بَكَتْهُ زَوَايَا الْعِلْمِ يَعْمُرُهَا ... وَأَرْسَلَ الدَّمْعَ مَحْزُونٌ وَمُكْتَئِبُ
«وَلِيدٌ»؛ كُنْتَ نِبَرَاسَ الْعُلُومِ وَهَلْ ... لِوَلِيدٍ مَثَلٌ تَعْلُو بِهِ الْخُطَبُ
وَمَنْ كَمِثْلِكَ لِلطُّلاَّبِ يَرْفِدُهُمْ ... بِكُلِّ نَافِعَةٍ تَسْمُو بِهَا الرُّتَبُ
تَزَوَّدُوا بِعُلُومِ الشَّرْعِ تَدْفَعُمْ ... إِلَيْهِ تَقْوَىٰ وَعَزْمٌ صَارِمٌ عَجَبُ
وَكَمْ وَكَمْ شَيَّدَتْ يُمْنَاكَ مِنْ عَمَلٍ ... بِرٍّ فَأَنْتَ لِطُلاَّبِ الْعُلُومِ أَبُ
فَلاَ الْبَيَانُ ولا الأَشْعَارُ قَادِرَةٌ ... عَلَىٰ الْوَفَاءِ ولا الأَسْفَارُ وَالأَدَبُ
نَمْ فِي النَّعِيمِ بِفَضْلِ اللهِ مُغْتَبِطًا ... يَحُفُّكَ السَّعْدُ لا يَنْتَابُكَ الْوَصَبُ[1]

(١) بتصرف من قصيدة ألقاها الدكتور عبد الرحمن الأهدل في رثاء الشيخ صالح بن محمد المقوشي، ورأيتُ أنها تصلح بمعانيها السامية علىٰ شيخنا الدكتور وليد العلي ﷾. هكذا ذكرها الشيخ إبراهيم عبد الغفار في مقالته.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأزواجه وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فهذا المتن تقاسم طلبة العلم حفظه نثرًا ونظمًا، وهو متن مبارك وضع الله له القبول، مع أن صاحبه قد فارق الحياة منذ ما يزيد علىٰ ألف سنة، ولا زال الناسُ بحمد الله يحفظون هذا المتن، وهو ما صنفه الإمام أبو محمد عبد الله ابن عبد الرحمن المعروف بابن أبي زيد، وهو من مدينة القيروان وكان يعرف بين أهل هذه البلاد بأنه مالك الصغير؛ لأنه قد ورث علم الإمام مالك فيسر الله له نشر علوم إمام دار الهجرة، وكان وفاته في سنة ست وثمانين وثلاثمائة.

وسيكون شرح هذا المتن والنظم[1] بمثابة فك ألفاظهما، وقد اقترحت اللجنة المنظمة -وفق الله ﷻ القائمين عليها- أن يرفقوا مع هذا الشرح هذا

(١) نظم مقدمة ابن أبي زيد القيرواني للشيخ أحمد بن مشرف الأحسائي المالكي.

الكتاب المبارك[(١)]، وهو لشيخنا العلامة المدرس في مسجد النبي ﷺ أبي عبد الرزاق عبد المحسن بن حمد العباد البدر -حفظه الله تعالى ورعاه وبارك في جهده ومسعاه.

وسيكون بمثابة الشرح الذي يتوسع طلبة العلم في تلقي المزيد منه، وسَيُفَكُّ في هذا المجلس لفظ النظم والمتن بما ييسر الله ﷻ.

هذه مقدمة بين يدي هذه الرسالة العظيمة التي صنفها الإمام ابن أبي زيد القيرواني والتي نظم فيها قواعد مذهب إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس الأُصْبُحِيَ.

وقد تميزت هذه الرسالة عن غيرها من كتب الفقه التي تقدمتها أو تأخرت عنها بأنها قد جمعت بين أصلين عظيمين: الفقه الأكبر وهو فقه الاعتقاد، والفقه الأصغر وهو فقه العبادات والمعاملات، وكل ما بين أيدينا من كتب الفقه إنما يُعنىٰ أصحابها بتقرير الفقه الأصغر، وهو فقه العبادات والمعاملات، لكن الإمام أبا محمد عبد الله بن عبد الرحمن، الملقب بابن أبي زيد القيرواني سلك مسلكًا بديعًا لم يُسبق إليه، وهو أنه جمع في كتاب واحدٍ بين فقهين، بين الفقه الأكبر وهو فقه الاعتقاد، وهو المقصود الذي لأجله أنزل الله ﷻ الكتب وبعث الرسل، ولا يصح لأحد أن يتعبد الله ﷻ في عباداته أو معاملاته إلا بعد أن يحقق حُسن الاعتقاد بالرب البر الجواد ﷻ، وبين الفقه الأصغر؛ بدءًا من كتاب الطهارة ومرورًا ببقية أبواب العبادات وأبواب المعاملات، لكن جعل بين يدي هذه الرسالة هذه المقدمة،

---

(١) قطف الجنىٰ الداني شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني للشيخ عبد المحسن العباد -حفظه الله-.

وهي مقدمة تشتمل علىٰ الفقه الأكبر، وهو ما يتعلق بالعقيدة التي لا مجال للاجتهاد فيها بل هي عقيدة توقيفية، بمعنىٰ أن الله ﷻ هو الذي أوقف رسوله ﷺ علىٰ تفاصيلها، فليس لأحد أن يتكلم في شيء من أبواب الاعتقاد من قِبل رأيه؛ لأن مبناه علىٰ تنزل الوحي علىٰ النبي ﷺ فلا يجوز لأحد أن يجتهد في مبحث من مباحث الاعتقاد، بخلاف مباحث الفقه الأصغر؛ فإن باب الاجتهاد فيها واسع، أما الاعتقاد فلا يجوز لأحد أن يتكلم في مسألة من المسائل إلا وهو مطالب بأن يذكر الدليل ووجه الاستدلال علىٰ هذه المسألة، بأن يستشهد بقول الله تعالىٰ؛ أو قول النبي ﷺ، فلذلك امتازت هذه العقيدة بصفائها؛ لأنها وحي من عند الله ﷻ، وعرفت بعد ذلك بمقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني.

وقد أحسن فضيلة شيخنا المؤلف لشرح هذه الرسالة الذي جُعل بين يدي هذه الدروس ليُستأنس بمطالعته ويُتوسع في معرفة وجوه المسائل التي تطرق إليها، وقد جعل -حفظه الله تعالىٰ- بين يدي هذا الشرح عشر فوائد:

الفائدة الأولىٰ: بيان منهج أهل السنة والجماعة في العقيدة، وأن منهجهم أُسِّسَ بُنيانهُ علىٰ تقوىٰ من الله ورضوان، علىٰ اتباع الكتاب العزيز والسنة المطهرة، وفق فهم سلف الأمة الصالح.

فهذا مما مميز عقيدة أهل السنة والجماعة علىٰ غيرها من عقائد أهل البدعة والشناعة، فكل من سوىٰ أهل السنة والجماعة فإنهم إما أن ينتهجوا في تقرير عقائدهم الكتاب فقط، أو الكتاب والسنة، لكن لا تجد من ينتهج في اعتقاده الكتاب العزيز والسنة المطهرة ويستضيء بفهم سلف الأمة الصالح إلا أرباب هذا الاعتقاد الذين هداهم الله لسبيل الرشاد، بدءًا من صحابة رسول الله ﷺ الذين فهموا التنزيل وعلموا التأويل، ومن سار علىٰ نهجهم

إلىٰ يومنا هذا، وهم أهل السنة والجماعة.

الفائدة الثانية: أن كل من لزم منهج أهل السنة والجماعة فإنه سيُهدىٰ ولا بد إلىٰ الوسطية التي تدعيها كل الفرق، التي هي شعار هذه الأمة المباركة، ولم يُهد أحد لهذه الوسطية إلا أهل السنة والجماعة، فقد هداهم الرب ﷻ إليها وجعل اعتقادهم وسطًا بين فرق الضلال.

الفائدة الثالثة: مما تتميز به هذه العقيدة أنها توافق الفطر السليمة، وتطابق العقول المستقيمة، وهذا يدل علىٰ أن الفطر التي لم تنحرف بشيء من الأهواء والبدع والزيغ إلا وافقت وطابقت هذا الاعتقاد الذي دل عليه كتاب ربنا ﷻ وسنة نبينا ﷺ وسار عليه سلف الأمة -رضوان الله عليهم أجمعين- حذو القُذة بالقُذة.

الفائدة الرابعة: وهو عدم تفريقهم في نصوص الاعتقاد بين خبر آحاد ومتواتر، ولا يفرقون في إثباتهم بين الأسماء والصفات، ولا بين الصفات بعضها مع بعض، فعندهم قاعدة: أن الكلام في الصفات فرع علىٰ الكلام في الذات، وكما يثبتون ذاتًا مقدسةً لا تشبهها الذوات كذلك يثبتون صفات لا تشبهها الصفات، ولا يفرقون بين الصفات الذاتية والفعلية في الإثبات، ويثبتون جميع الصفات لا يفرقون بين الصفات التي هي قرينة الذات في الدلالة علىٰ وجودها كما يُعرف بالصفات السبع ولا غيرها من الصفات، فالباب عندهم واحد؛ لأنه باب دلت عليه آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ.

الفائدة الخامسة: بيان أن هذا المنهج الذي انتهجه سلف الأمة الصالح قد انتهجوه دون تأويل ولا تفويض، دون تأويل: بأن يثبتوا هذه النصوص ولا يؤولوا معانيها تأويل المتكلمين، ودون تفويض: بأن يثبتوها غير مجردةً

عن فهم المعنىٰ، بل يفهمونها الفهم المراد منها، كما سيأتي أثر الإمام مالك بن أنس الذي هو قاعدة هذا الباب.

الفائدة السادسة: أن أهل البدعة والشناعة بسبب ما ابتُلوا به من الانحراف -جمعوا بين أنواع من الانحرافات؛ لأن البدع بعضها يجر بعضًا، قال الحسن البصري: «الحسنة تولد الحسنة بعدها، والسيئة تولّد السيئة بعدها» وكذلك السنة تولد السنة بعدها، والبدعة تولد البدعة بعدها، فكل من المشبهة والمعطلة قد جمعوا بين التمثيل والتعطيل، فكل ما ابُتلي بشيء من التشبيه فإنه قد وقع قبل ذلك في التعطيل، وكل من ابُتلي بشيء من التعطيل فإنه قد وقع قبل ذلك في التشبيه.

الفائدة السابعة: أن من نعمة الرب ﷻ علىٰ أهل السنة والجماعة أن أحدهم يموت وهو منشرح الصدر قرير العين، منصلح البال، يحمد الرب ﷻ قد حمد الله علىٰ نعمة الثبات علىٰ هذه السنة حتىٰ الممات، بخلاف أهل البدعة والشناعة؛ فإنهم يضطربون قبل الموت ويندمون علىٰ ما كانوا عليه من اعتقاد ويكثرون الحيرة والندم، ويتمنىٰ أحدهم لو رجع إلىٰ عقائد العجائز الذين أدركهم ومات علىٰ الفطرة التي انحرف عنها، وهذا من أدل الدلائل علىٰ نعمة السنة التي أنعم الله بها علىٰ السلف الصالح -رضوان الله عليهم أجمعين-.

الفائدة الثامنة: جواب الشيخ علىٰ السؤال الذي يُدَّعىٰ فيه أن جُلَّ أفراد الأمة علىٰ غير هذا الاعتقاد، فأجاب علىٰ هذا الجواب بثلاثة طرق:

أولًا: أن هذه الدعوة تفتقر إلىٰ البينة.

ثانيًا: لو قدر أن البينة مع أهل هذه الدعوة؛ فإن هذه الكثرة لا تدل علىٰ الصواب والحق.

ثالثًا: أن الله مدح أهل الشكر وهم قليل بين عباده، وأن طاعة أكثر من في الأرض تُضل عن سبيل الله.

الفائدة التاسعة: أن هذا الإمام الذي نتدارس عقيدته هو أحد من نشأ في أكناف مذهب الإمام مالك بن أنس، وفي هذه دلالة علىٰ أن اتباع الأئمة الأربعة معتقدهم صحيح ونهجهم مليح، وأنهم قد انتهجوا هذا الاعتقاد الصحيح، الذي تلقوه من كتاب الرب ﷻ ومن سنة النبي ﷺ، ووافقوا فيه أصحاب النبي ﷺ الذين عايشوه، ووافقوا فيه التابعين وهم من رأوا أصحاب النبي ﷺ، ووافقوا فيه أتباع التابعين، وهم من أدركوا التابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

وضرب علىٰ ذلك جملةً من الأمثلة من أتباع الإمام أبي حنفية النعمان بن ثابت الكوفي، ومن أتباع الإمام أبي عبد الله مالك بن أنس الأصبحي، ومن أتباع الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، ومن أتباع الإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، وأن هؤلاء هم الأئمة الذين نشر الله ﷻ ذكرهم الجميل وجعل لهم لسان صدق في الآخرين.

ولو نظرنا في عقائد الأئمة الأربعة، لوجدناها قد اجتمعت في جملتها علىٰ ما في هذه المقدمة المباركة.

الفائدة العاشرة: ذكر جملة من المصنفات التي صنفت في الاعتقاد علىٰ منهج سلف الأمة، والتي يوافق ما فيها ما ذكره الإمام ابن أبي زيد القيرواني.

بَابُ مَا تَنْطِقُ بِهِ الأَلْسِنَةُ وَتَعْتَقِدُهُ الأَفْئِدَةُ مِنْ وَاجِبِ أُمُورِ الدِّيَانَاتِ.

هذا فيه الإشارة إلىٰ أن الإيمان مركب من اعتقاد بالجنان، ونطق باللسان، وعمل بالأركان، فأشار إلىٰ اعتقاد الجنان بقوله: (وَتَعْتَقِدُهُ الأَفْئِدَة)، وأشار إلىٰ نطق اللسان بقوله: (مَا تَنْطِقُ بِهِ الأَلْسِنَةُ)، وأشار إلىٰ ما يشمل ذلك كله مع عمل الأركان بقوله: (مِنْ وَاجِبِ أُمُورِ الدِّيَانَاتِ)، فإن الجوارح هي التي تقوم بكثير من الواجبات التي جاءت بها الديانات.

والمقصود: هو الإشارة إلىٰ أصول العقائد التي جاءت بها جميع الرسالات السماوية، فإن الرسالات السماوية قد جاءت مقررةً لثلاثة أصول:

الأصل الأول: هو ما يتعلق بالتوحيد، وهو حق الله علىٰ العبيد.

والأصل الثاني: ما يتعلق بالنبوات، والذي يتضمن الإيمان بالملائكة الذين هم الواسطة بين الله ورسله، والإيمان بالكتب، والإيمان بالأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

والأصل الثالث: هو المعاد، والبعث والنشور، والوعد والوعيد، والجزاء والثواب والعقاب.

وقد اجتهد بعض أهل العلم في ذكر بعض النصوص من التوراة التي لم تنالها أيدي التحريف، ومن الإنجيل التي لم يعبث بها العابثون، وطابقوا بين هذه النصوص وبين آي الذكر الحكيم، كما اجتهد بذكر نماذج من هذه النصوص شيخُ الإسلام ابن تيمية في كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» ونقل جملةً منها تلميذُه ابنُ قيم الجوزية في كتابه «هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ».

مِنْ ذَلِكَ: الإِيمَانُ بِالْقَلْبِ وَالنُّطْقُ بِاللِّسَانِ أَنَّ اللهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ غَيْرُهُ، ولا شَبِيهَ لَهُ، ولا نَظِيرَ لَهُ، ولا وَلَدَ لَهُ، ولا وَالِدَ لَهُ، ولا صَاحِبَةَ لَهُ، ولا شَرِيكَ لَهُ.

ثم ذكر جملةً من الأمور التي يجب علىٰ كل إنسانٍ أن يعتقدها، وأن ينطق بها، وأن يعمل بمقتضاها، فقال: (مِنْ ذَلِكَ: الإِيمَانُ بِالْقَلْبِ وَالنُّطْقُ بِاللِّسَانِ).

فإذا صدق اعتقاد الجنان ونطق اللسان أورثهما بعد ذلك ترجمة ذلك بالأركان والجوارح، وسيأتي في وسط هذا الاعتقاد ذكر التقسيم الثلاثي لأركان الإيمان، وأنه اعتقاد بالجنان ونطق باللسان وعمل بالأركان، لكنه أجمل هنا العمل بالأركان بدلالة قوله: «مِنْ وَاجِبِ أُمُورِ الدِّيَانَاتِ».

أشار إلىٰ أصل الاعتقاد الذي يشتمل علىٰ النفي والإثبات، وهو حقيقة شهادة لا إله إلا الله، وهو النفي العام، والإثبات الخاص، فـ «لا إله» تتضمن النفي العام، إلا الله تتضمن الإثبات الخاص، فقال: (أَنَّ اللهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)، هذا الإثبات الخاص، ثم نفىٰ سبعة أمور، فقال: (لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ، ولا شَبِيهَ لَهُ، ولا نَظِيرَ لَهُ، ولا وَلَدَ لَهُ، ولا وَالِدَ لَهُ، ولا صَاحِبَةَ لَهُ، ولا شَرِيكَ لَهُ).

ونلاحظ أن الإمام ابن أبي زيد القيرواني يقتبس كثيرًا من جمل مقدمته من نصوص الكتاب العزيز، ومن سنة النبي ﷺ كما سيأتي نظير ذلك في مواطن عدة من هذا الاعتقاد.

فلو نظرنا في قوله: (أَنَّ اللهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ غَيْرُهُ) لوجدناه مقتبسًا من قوله ﷻ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] فهذا نظير هذه الآية المباركة.

ولو نظرنا في قوله: (وَلاَ شَبِيهَ لَهُ، ولا نَظِيرَ لَهُ) لوجدنا الدلالة علىٰ ذلك

من قوله ﷻ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، ومن قوله: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥].

ولو نظرنا في قوله: **(وَلاَ وَالِدَ لَهُ، ولا صَاحِبَةَ لَهُ، ولا شَرِيكَ لَهُ)** لوجدنا ذلك مقتبسًا من قول الرب ﷻ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٠١].

إذًا هذا الاعتقاد ونظيره مما صنفه علماء السلف التي من جملة عقائدهم هذه الجمل التحف، تجدها قد اقُتبست من هذه النصوص المباركة التي هي وحي من عند الله ﷻ.

ولو نظرت في عقائد أهل البدعة والشناعة لن تجد فيها في الغالب منذ أن تنظر عينك بمقدمتها إلىٰ خاتمتها إلىٰ نص مقتبس من الوحي، فليس فيها أثارة من وحي الرب ﷻ الذي أوحاه إلىٰ النبي ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، بينما ستجد فيها كثيرًا: قال الحكيم، قال الحكماء، إلى غير هذه الألفاظ التي يحكون بها مذاهب الفلاسفة.

وهذه الجملة في حقيقتها تتضمن تقرير الإيمان بربوبية الله، وهو الاعتقاد أن الله ﷻ واحد في أفعاله، فلم يشاركه أحد في خلقه ولا في رزقه، ولا في إحيائه ولا في إماتته، ولا في إعطائه ولا في منعه، ولا في تقديمه ولا في تأخيره، ولا في قبضه ولا في بسطه، بل هو وحده المتفرد بالربوبية، فهو الذي ربانا بأن أوجدنا من العدم وغَذَّانا بالنعم.

ويتضمن كذلك الإيمان بألوهية الرب ﷻ، وأنه واحد في ألوهيته، فهو الواحد الذي نعبده، وهو الواحد الذي نستعين به؛ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ونظير ذلك قول النبي ﷺ: «**إذا سألت فاسأل**

الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»[(١)] واحد في أسمائه وصفاته، فليس له سمي في أسماء الجلال ولا صفات الكمال ولا نعوت الجمال ﷻ، وهو الكبير المتعال.

وكذلك من دلائل ألوهيته أنه لا ينبغي أن يُصرف شيء من العمل إلا له؛ كما قال في الحديث القدسي: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[(٢)]، فهو غني عن عبادتنا، ولم يخلقنا ليتكثر بنا بعد قلة، أو يتعزز بنا بعد ذلة، وإنما خلقنا لأسمىٰ غاية وعلة وهي عبادته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقوام هذه العبادة هو ما يجمع جميع الأقوال، والأعمال، والأفعال الظاهرة والباطنة مما يحبه الله ويرضاه، أن تصرف جميع العبادات ويلحظ في صرفها حق الله وهو الإخلاص، وحق النبي ﷺ وهو المتابعة، فتوحيد المُرْسِل ﷻ بأن نُخلص له العمل، وتوحيد المُرْسَل، وهو رسول الله ﷺ بأن نصدق في متابعته، ومرجع هذين الأصلين إلىٰ قول النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوىٰ**»[(٣)]، وإلىٰ قوله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[(٤)].

ثم شرع الإمام ابن أبي زيد القيرواني في ذكر تفاصيل الإيمان بربوبية الرب ﷻ وألوهيته وأسمائه وصفاته؛ وهذه الجمل تقسيمها من اجتهاد شيخنا

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤/ ٢٥١٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٦/ ٢٥١٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٩٨٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ح٦٦٨٩)، ومسلم في صحيحه (٣/ ح١٩٠٧).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ح٢٦٩٧)، ومسلم في صحيحه (٣/ ح١٧١٨).

لَيْسَ لأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ، ولا لآخِرِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ

الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد البدر -حفظه الله تعالىٰ- فإنه قسم منثور هذه المقدمة إلىٰ ثلاثين فقرة وليست هذه التقسيمات من تقسيم الإمام ابن أبي زيد القيرواني وإنما هو من اجتهاد شيخنا حسب تقارب معاني هذه الجمل.

فقال: **(لَيْسَ لأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ، ولا لآخِرِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ)**، وهذه الجملة قد اقتبسها الإمام ابن أبي زيد القيرواني من قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

ومقتبس من حديث النبي ﷺ: «**إذا أوىٰ أحدكم إلىٰ فراشه من الليل فليقل: اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر**»[(١)]، وهذا فيه دلالة علىٰ أن الرب ﷻ قد سبق كل شيء، وكل شيء وإن تمادىٰ به الأمد فإن الله ﷻ يأتي بعده، فهو سبحانه الأول والآخر، والمقدم والمؤخر.

فما من شيء له أولية إلا وأوليته مقتبسة من فضل الرب ﷻ، فإن الإنسان أوليته بخلق أبيه آدم إنما هو من ابتداء الرب ﷻ وخلقه لآدم الذي هو أصل الإنس، وكذلك الجان، فإن أصلهم من إبليس، كما قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوُّۢۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ح٢٧١٣).

فمرجع المكلفين إلىٰ إنس وجان، والإنس يرجعون إلىٰ أصل أبيهم آدم، والجان يرجعون إلىٰ أصل أبيهم إبليس، وأما لفظ الشيطان فإنه يعم كل من خرج عن طاعة الله من الإنس والجن؛ كما قال الرب ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

والأولية والآخرية لهما آثار، فالرب ﷻ قد جعل لبعض خلقه أولية وآخرية، وجعل لبعضهم أولية وليس لهم آخرية، وخلق الله يرجع إلىٰ خلقين، خلق خلقهم الله للفناء وخلق خلقهم الله للبقاء، فما خلقه الله للفناء هو عموم من خلقهم الله للتكليف، وهم الإنس والجن، ومن خلقهم الله للقيام بشؤون المكلفين ولشئون العالم العلوي والسفلي وهم الملائكة، وما خلقه الله ﷻ لانتفاع المكلفين من الحيوان والنبات، فهؤلاء لهم أولية لكن أوليتهم تنتهي بالفناء.

وهناك من خَلْقِ الله من لهم أولية لكن خلقهم للبقاء، وهو ما كان من شؤون اليوم الآخر، سواء مما خلقه الله للبقاء في الجنة، أو مما خلقه الله للبقاء في النار، فما من أمر من الأمور له ابتداء إلا وهذا الابتداء أثر من أسماء الرب ﷻ الأول، وما من شيء له انتهاء إلا وهو أثر من آثار أسماء الرب ﷻ الآخر، فهو المتوحد ﷻ بالبقاء، وما بقي من خلق الله فإنه أثر من آثار هذا الاسم المبارك.

ولا يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَتِهِ الْوَاصِفُونَ، ولا يُحِيطُ بِأَمْرِهِ الْمُتَفَكِّرُونَ، يَعْتَبِرُ الْمُتَفَكِّرُونَ بِآيَاتِهِ، ولا يَتَفَكَّرُونَ فِي مَاهِيَّةِ ذَاتِهِ.

قوله: **(وَلاَ يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَتِهِ الْوَاصِفُونَ)**.

وهذا من جملة ما تميز به أهل السنة والجماعة، أنهم قد أُسِّسَ بُنيانُ معتقدهم علىٰ تقدير الرب وتعظيمه ﷻ، بخلاف غيرهم ممن يندرجون تحت قوله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]

فمن جملة ما يُقَدِّرُون ويعظمون به الرب ﷻ، واعتقادُهم أنه مهما اجتهد أحدٌ في العلم فإنه لا يبلغ التعرف علىٰ حقائق هذه الصفات، وإنما غاية ما فتحه الله لنا من العلوم أن نتعرف علىٰ معانيها، فنحن نفهم المعنىٰ مع جهلنا بكيفية الصفة، والرب ﷻ خاطبنا بلسان عربي مبين، وسمىٰ أسماءَه ووصف صفاته بألفاظ نعرف المقصود منها والمعنىٰ المراد منها، لكن حقائق هذه الصفات وكيفياتها علمها عند ربي ﷻ ونحن غير متعبدين بذلك التكلف، لكننا متعبدون بمعرفة أن من أسمائه ﷻ العلي، وأن من أوصافه العلو، وتعبُّدُنا بهذا الاسم وهذا الوصف يحملنا علىٰ مراقبة الله ﷻ فنستشعر أن الله مطلع علينا؛ فهو سميع لأقوالنا، بصير بأفعالنا، عليم بأحوالنا، هذا الذي خاطبنا به وتعبدنا به، وهو معرفة الله بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلا.

قوله: **(وَلاَ يُحِيطُ بِأَمْرِهِ الْمُتَفَكِّرُونَ، يَعْتَبِرُ الْمُتَفَكِّرُونَ بِآيَاتِهِ، ولا يَتَفَكَّرُونَ فِي مَاهِيَّةِ ذَاتِهِ)**.

فقد خوطبنا بالتدبر في أوامر الله الكونية، كقوله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠] ولماذا يخرج الله الشمس من

المشرق فتنتهي إلىٰ المغرب؟

ولا نحيط بالحكمة من وراء أوامره الشرعية؛ ومن جملتها آيات القرآن الكريم، ولماذا كانت صلاة الفجر بأدائها ركعتين جهريتين؟ وصلاة الظهر بأدائها أربع ركعات سرية؟ غاية ما عند أهل العلم الاستئناس بهذه الأوامر، ونعلم أنها من لدن حكيم عليم، حكيم فيما أمر به، عليم فيما يصلحنا، جل في علاه.

والرب ﷻ قد تعبدنا بالتفكر في آياته ولم يتعبدنا بالتفكر في ماهية ذاته، فأرشدنا إلىٰ التفكر والتدبر والتبصر، بل هو أجلُّ مقصود القرآن الكريم:

قال الله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

أما التفكر الذي لا يجوز لأحد أن يخوض فيه: فهو التفكر في ماهية أي -حقيقة ذات الله-؛ فأنَّىٰ لهذا العبد الضعيف أن يتفكر في ماهية الرب القوي؟! أنىٰ لهذا العبد الكسير أن يتفكر في ماهية الجبار؟! أنىٰ لهذا العبد الفقير أن يتفكر في ماهية الغني الكبير، بل علىٰ العبد أن يتأمل في بعض دلائل مصنوعاته التي تدل علىٰ عظمته وكبريائه وجلاله ﷻ، فهذا التفكر هو الذي ينتفع به العبد، التفكر في آيات الرب ﷻ، وما وراء ذلك:

ولا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، ولا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ.

فإنما هو تخبط بعلمٍ حجبَ الله عنا معرفتَه، كما قال الإمام ابن أبي زيد القيرواني: (**وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، ولا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**).

هذه الجملة اقتبست من الشطر الثاني من آية الكرسي المباركة، التي هي أعظم آية في القرآن الكريم، ومبناها علىٰ عشر جمل وتركيبها من خمسين كلمة، كلها تتضمن الدلالة علىٰ استحقاق الرب ﷻ للألوهية التي لا تنبغي لأحد سواه.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: الدالة علىٰ أنه لا يستحق أحد أن يكون شريكًا مع الله ﷻ في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأن له كمال الحياة: ﴿ٱلۡحَيُّ﴾، وكمال القيومية: ﴿ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، وكمال المُلك: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، وكمال الغنىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾، وكمال العلم: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾، مؤكدًا هذه الحياة وهذه القيومية بقوله: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾، ومؤكدًا غناه وكمال علمه بقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ فممَّا شاءه الله هذه العقيدة؛ لأن الأصل في هذه العلوم أنها غيبية لم يأذن الرب أن يطلع عليها، لا مَلَك مقرب ولا نبي مرسل.

﴿إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ وهو ما بين أيدينا من هذه العقائد المأخوذة من كتاب الرب ﷻ، ومن سنة النبي ﷺ.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ ومما شاءه ما سيأتي من أسمائه

الْعَالِمُ الْخَبِيرُ، الْمُدَبِّرُ الْقَدِيرُ، السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ

الحسنىٰ وصفاته العلا.

ثم ذكر كمال سعته: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وكمال حفظه: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾، وكمال علوه وعظمته: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

هذه عشر كمالات، وعشر مقاصد من المقاصد العقدية التي تقرر استحقاق الرب ﷻ لكمال الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

ثم ذكر جملةً مما شاء الرب ﷻ أن يُطلعنا عليه من أسمائه الحسنىٰ التي تشتق منها الصفات العلا، فذكر في قوله: (الْعَالِمُ الْخَبِيرُ، الْمُدَبِّرُ الْقَدِيرُ، السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ).

هذه الجملة تشتمل علىٰ بعض الأسماء والأوصاف والإخبارات، فلا نحيط بشيء من علم الله إلا ما شاء أن يُطلعنا عليه، فنحيط ببعض أسمائه الحسنىٰ التي لا يحصيها غيره؛ لقول النبي ﷺ: «**أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك**»[(١)].

وأسماء الله ﷻ إما أن تكون مودعةً في الوحي «**أنزلته في كتابك**»[(٢)]، وهذا يشمل القرآن العزيز، «**أو علمته أحدًا من خلقك**»[(٣)]، وهو يشمل ما في السنة المطهرة مما عَلِمه نبينا محمد ﷺ، «**أو استأثرت به في علم الغيب**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده (١/ح٣٢٩)، وأحمد في مسنده (٦/ح٣٧١٢)، وابن حبان في صحيحه (٣/ح٩٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ح١٨٢٢).

(٢) التخريج السابق.

(٣) التخريج السابق.

عندك»[(١)]، وهذا لا يعلمه مَلَك مقرب ولا نبي مرسل.

فأكمل الخلق علمًا وخشيةً ومعرفةً بالله يقول -في المقام المحمود الذي يقومه في عرصات القيامة حين يخر ساجدًا لله طالبًا الشفاعة للخلق- يقول: «**فيفتح الله عليَّ مِنْ حُسْنِ محامده، والثناء عليه: ما لا أُحْسِنه الآن**»[(٢)]، وهو يُحَدِّث أصحابه ﷺ في تلك الساعة لا يدري ما الذي سيفتحه الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه، ومعلوم أن الله ﷻ إنما يُحمد بأسمائه وأوصافه؛ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، فلا يحمد الله إلا بأسمائه وأوصافه، وربما حُمِدَ ببعض ما يُخبَرُ به عن الله.

فنحن نتعرف علىٰ الله ﷻ بأسمائه الحسنىٰ، ومن هذه الأسماء تُشتق الصفات العلا، فكل اسم من الأسماء التي علَّمنا إياها، وهي تسعة وتسعون اسمًا، كما جاء من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدةً من أحصاها دخل الجنة**»[(٣)] تُشتق منه الصفة، فاسم الجلالة الستير: يُشتق منه وصف الستر، واسم الجلالة الحليم: يُشتق منه وصف الحلم... إلخ.

فهذه تسعة وتسعون اسمًا مع تسعة وتسعين وصفًا، والأوصاف أكثر من ذلك؛ لأن بعض النصوص قد تضمنت الدلالة علىٰ الصفات كصفة الاستواء علىٰ العرش وهي ليست مأخوذةً من اسم، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، هذا وصف للرب ﷻ بأن له

---

(١) التخريج السابق.

(٢) المستخرج علىٰ صحيح مسلم لأبي نعيم (١/ ٢٦٩)، وصححه الألباني في تحقيق شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٣٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ح٢٧٣٦)، ومسلم في صحيحه (٤/ح٢٦٧٧).

صفة الكلام مع الكمال الذي يليق به، لكن ليس من أسمائه المتكلم.

فلا يجوز أن نشتق من الأوصاف أسماء، وإنما نشتق من الأسماء صفات، وهناك ما هو وراء ذلك، وهو الإخبار، وهو أن نخبر عن الله ﷻ بكل ما يصح أن نخبر عنه، شريطة ألا يتضمن نقصًا في حق الجلال والجمال والكمال الموصوف به الكبير المتعال؛ كما قال الرب ﷻ في سورة النمل: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]

فأخبر عن نفسه بأن له صنع، وأنه أحسن كل شيء خلقه، فلنا أن نقول: هذا صنع الله المتقن المحكم الذي ليس به خلل؛ لأننا نخبر عن الرب ﷻ لكن شريطة أن تكون هناك أمارات الإجلال المكتنف بالجمال والكمال الذي يليق بالكبير المتعال ﷻ.

فالعَالِم علىٰ سبيلِ المثال لم يرد في أسماء الرب ﷻ مفرداً وإنما جاء مقترنًا لقوله ﷻ: ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الزمر: ٤٦]، وجاء علام الغيوب، فعالم وعلام لم يردا كاسمين مفردين[(١)]، وإنما الذي ورد أن من أسماء الرب ﷻ التي يسوغ أن يطلق مفردًا، العليم.

إن كانت النسخة التي بين أيدينا عليم، فهذه هي الجادة الصحيحة، وهي أقرب إلىٰ دلالة الاسم من أسماء الله الحسنىٰ، وإن كان عالمًا: يكون المراد علىٰ سبيل الإخبار.

ومن أوصاف الرب ﷻ التدبير؛ قال تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥]، والقدير والسميع والبصير والعليم والكبير من أسمائه ﷻ، وكل اسم من هذه الأسماء له دلالة تدل عليه من الكتاب العزيز والسنة المطهرة.

---

(١) فيه نظر؛ فالعالم من أسماء الله، ذكره كثير من أهل العلم، وكذا العلَّام.

وَأَنَّه فَوْقَ عَرْشِهِ الْمَجِيدِ بِذَاتِهِ، وَهُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِعِلْمِهِ.

هذه الجملة مقتبسةٌ من قول الرب ﷻ: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]، والمجيد في سورة البروج جاء فيها قراءتان عشريتان متواترتان، قراءة الجمهور: ﴿**ذو العرش المجيدُ**﴾، علىٰ أن المجيد اسم وصف للرب -تبارك وتعالىٰ-، وفي قراءة حمزة والكسائي وخلف العاشر: ﴿**ذو العرش المجيدِ**﴾، علىٰ أنه وصف العرش، وسورة البروج تضمنت ذكر المجد، والنعت بالمجد، في هذه السورة مع القراءتين، الرب ﷻ نعت بالمجد، وعرشه نعت بالمجد، وكلامه وهو القرآن نعت بالمجد.

والعرش وُصِف في القرآن الكريم بثلاثة أوصاف: وصف بالعظمة، والكرم، والمجد، ولم يقترن بذكر العرش من أسماء الرب ﷻ إلا الرحمن، قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۛ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

قال أهل العلم: من حِكم الله في ذلك أن العرش هو أوسع المخلوقات، وفرق بين قولنا: أوسع المخلوقات، وبين قولنا: أشرف المخلوقات، أوسع المخلوقات علىٰ الإطلاق هو العرش، وأشرف المخلوقات علىٰ الإطلاق هو النبي ﷺ، فلما ذكر أوسع المخلوقات ناسب أن يذكر اسمًا مناسبًا ومشابهًا له في السعة، فذكر الرحمن؛ لأن الرحمة هي أوسع الصفات؛ كما قال الرب ﷻ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فرحمته ﷻ وسعت كل شيء، فجاء التشاكل ما بين أوسع الصفات وأوسع المخلوقات.

وعبر الإمام ابن أبي زيد القيرواني بقوله: «**بذاته**»؛ للدلالة علىٰ أنه

استواء حقيقي بالذات المقدسة، لا كما يعتقده بعض من خرج عن جادة هذه الدلالة من كتاب الرب ﷻ وسنة النبي ﷺ.

ومع هذا الاستواء الذي فيه مباينة من المخلوقات، إلا أنه ﷻ معنا في كل مكان بعلمه، فسبحان من فرق ما بين عقيدة أهل السنة والجماعة وعقيدة أهل البدعة والشناعة.

عقيدة أهل السنة والجماعة في هذه المسألة: أنه استوىٰ علىٰ عرشه بذاته وهو في كل مكان بعلمه، وأهل البدعة والشناعة علىٰ أنه استوىٰ علىٰ العرش استواءً مؤولًا، يقولون تارةً: استولىٰ، وأنه مع خلقه بذاته، فشتان ما بين عقيدة أهل السنة والجماعة وعقيدة أهل البدعة والشناعة، فهو ﷻ عَلِيٌّ مع دنوه من عباده بعلمه، وهو دان منا مع علوه، كما جاء في منظومة الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي «سلم الوصول إلىٰ علم الأصول»:

فـإنـه الـعـلـيُّ فـي دُنُـوه وهْـو الـقـريـبُ جَـلَّ فـي عُـلُـوه

والرب ﷻ ذكر استواءه علىٰ عرشه بلفظ: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ في سبع آيات: في سورة الأعراف، ويونس، والرعد، وطه، والفرقان، والسجدة، والحديد؛ كلها فيها تنصيص علىٰ لفظ: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾، فهي صفة من صفات الرب جل في علاه.

وأما العلو في صفة الرب ﷻ التي يدل عليها اسم الجلالة العلي، فيشمل علو الذات، والقهر، والقدر.

وقد أخبر الإمام ابن قيم الجوزية في مواطن من كتبه: أن دلائل العلو التي تدل علىٰ علو الله علىٰ خلقه ومباينته من خلقه تزيد علىٰ ألف دليل من كتاب الرب ﷻ، وسنة نبيه ﷺ، وأقوال الصحابة، وآثار التابعين، وأخبار أتباع التابعين، وما جاء في شعر الشعراء، وحكمة الحكماء، وقول بعض

الفلاسفة، وما جاء في قول بعض الجن، وختم ذلك ببعض ما جاء في قول الدواب، وقد جمع ذلك كله في كتابه العظيم: «اجتماع الجيوش الإسلامية علىٰ حرب المعطلة والجهمية» بدءًا بسرد الآيات، ثم سرد الأحاديث، إلىٰ أن انتهىٰ باعتقاد الدواب، كما جاء في الحديث أن نبيًّا من الأنبياء استسقاه قومه طلبًا للمطر، فخرج في صعيد فوجد نملةً مستلقيةً علىٰ ظهرها رافعةً قوائمها إلىٰ السماء، تقول: «**اللهم إنا خلق من خلقك، فلا تمنع عنا بذنوب عبادك فضلك**»، قال: «**ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم**»[1]، ما الذي أدرىٰ هذه النملة أن الله مستو علىٰ عرشه، وأنه بائن من خلقه، وأنه في جهة العلو جل في علاه وتقدست أسماؤه من إله عظيم عليم خبير ﷻ.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، باب مَا يُدْعَىٰ بِهِ فِي الِاسْتِسْقَاءِ (٦/ ٢٩٤٨٧)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠١)، وضعفه الألباني في الإرواء (٣/ ٦٧٠).

خَلَقَ الإِنْسَانَ، وَيَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا، ولا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ ولا رَطْبٍ ولا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ.

هذه الفقرة اقتبست دلالتها من آيتين كريمتين؛ آية «الأنعام» وآية «ق» وقد مر معنا أن ما تتميز به هذه المقدمة وهذه العقيدة من حسن سبكها وجمال حبكها، أنها قد رُكبت من نصوص الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حكيم يعلم ما يصلح شؤون العباد، ويحمد علىٰ هذه الحكمة التي شرع فيها مثل هذا الاعتقاد.

وقوله: (خَلَقَ الإِنْسَانَ).

هذا اقتباس من قول الرب ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

هذه الآية جمع فيها ما بين الخلق والعلم، وكثيرًا ما يقترن في كتاب الرب ﷻ ذكر صفة الخلق مع صفة العلم، للدلالة علىٰ أن الرب الذي ابتدأ خلق الإنسان هو الذي قد أحاط به علمًا؛ كما قال ﷻ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

فالرب ﷻ لم يخلقنا عبثًا ولم يتركنا سُدىً بل خلقنا وهو محيط بنا علمًا، وسيأتي تفصيل هذا العلم في آية الأنعام التي تضمنت في هذه الفقرة.

فالرب ﷻ خلق الإنسان وهو يعلم السر وأخفىٰ، يعلم ما يوسوس به الإنسان في خاصة نفسه، وهو قريب إلىٰ الإنسان قرب علم وإحاطة وعناية

وقدرة ورعاية من حبل الوريد، هذا الحبل هو العرق المتصل بقلب الإنسان، هذا هو أحد تفسيري السلف الذين لا يخرج الحق عن تفاسيرهم، والذي يظهر من كلام الإمام ابن أبي زيد القيرواني الميل إليه.

والتفسير الثاني: وهو الذي رجحه الحافظ ابن كثير في تفسيره ونبه عليه الإمام ابن قيم الجوزية في مواضع متعددة من كتبه، أن هذا قرب الملائكة الذين أوفدهم الرب ﷻ وأرسلهم إلىٰ هذا الإنسان لحفظه ولتسجيل عمله، ويصدق هذا التفسير نصوص عدة، كما جاء في قصة إبراهيم عليه السلام؛ قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤].

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام قد جادل جبرائيل عليه السلام ولم يجادل الله ﷻ، ولكن مجادلة إبراهيم لرسوله وموفده جبريل عليه السلام مجادلةٌ لله ﷻ وهذا التفسير والذي قبله كلاهما يدل علىٰ معنىٰ واحد، وهو إحاطة الرب ﷻ علمًا بهذا الإنسان، فشتان ما بين هذه التفاسير وهذه المعاني كل معنىٰ منها يصدق اتصاف الرب ﷻ بصفاته العلىٰ وتسميه بأسمائه الحسنىٰ، وبين التفاسير التي يراد من ورائها التأويل وصرف اللفظ عن ظاهره.

فمن فسر الآية بأنها علم الرب ﷻ وإحاطته وقدرته وعلمه بهذا الإنسان، فإنه يؤكد أن الملائكة قد سطرت هذا العمل؛ قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

ومن فسر هذه الآية بأنه قرب الملائكة إحاطةً وكتابةً فإن ذلك لا يخرج عن علم الله ﷻ وهذا هو المقرر لمعتقد السلف -رضوان الله عليهم أجمعين-.

وأما شق الفقرة الثانية وهي قوله: (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا)... إلىٰ آخر الفقرة.

فهو اشتقاق واقتباس من آية «الأنعام» وهو قول الرب ﷻ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فكل ما في هذا الكون فإنه لا يخرج عن علم الله ﷻ، ومسطر في الكتاب المبين الذي لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، وهذا يدلنا علىٰ أن الرب الذي أحاط بنا علمًا، يريد منا أن نراقبه ونعامله معاملة مَن قد أحاط بنا علمًا وأحصىٰ علينا كل شيء عددًا.

ومرتبة المراقبة تبعث علىٰ المحاسبة، فلا سبيل لمحاسبة العبد نفسه إلا إذا استحضر بين يديه علمَ الله ﷻ به، وأنه قريب منه ومطلع عليه وأقرب إليه من نفسه التي بين جنبيه، هذه المراقبة هي التي تبعث العبد علىٰ محاسبة الأعمال والأقوال والأفعال والأحوال، مستشعرًا قرب الكبير المتعال ﷻ.

وهذا القرب وهو قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ ناسب أن يتبعه الإمام ابن أبي زيد القيرواني بذكر استواء الله تعالىٰ علىٰ عرشه وعلوه علىٰ خلقه ومباينته لبريته ﷻ حتىٰ لا يذهب أحد منا مذهبًا باطلًا، ويعتقد أن قربه يستدعي إحاطته بالرب ﷻ بلا علم مع قربه منا بذاته، فهو مستو علىٰ عرشه، بائن من خلقه، قريب منا بعلمه، فلذلك أتبعها .....

عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، وَعَلَى الْمُلْكِ احْتَوَى

بقوله: (عَلَىٰ الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ، وَعَلَىٰ الْمُلْكِ احْتَوَىٰ).

فيها تقرير استواء الله تعالىٰ علىٰ عرشه، الذي قد جاء في سبع آيات كريمات من كتاب الرب ﷻ أول هذه الآيات في سورة الأعراف، وثانيها في يونس، وثالثها في الرعد، ورابعها في طه، وخامسها في الفرقان، وسادسها في السجدة، وسابعها في الحديد، كلها جاءت علىٰ نسق واحد مقررةً استواء الله تعالىٰ علىٰ عرشه.

وإذا ذُكر اسم من أسماء الرب ﷻ مقيدًا بهذا الاستواء، فإنما يأتي في هذا السياق اسم الجلالة الرحمن، كما في آية طه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وكما في آية الفرقان: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٩].

وقد سبقت الإشارة قريبًا إلىٰ سبب اقتران استوائه تعالىٰ علىٰ العرش مع اسمه «الرحمن».

فرحمة الله ﷻ وسعت كل شيء، فله مائة رحمة، أنزل منها رحمةً واحدةً، بها يتراحم الخلق منذ أن خلقهم، بها ترحم الأمُّ ولدها، والطير فرخَها، وبها ترفع الفرس حافرها لئلا تطأ برجلها علىٰ ولدها، وبها يتراحم عموم الخلق، حتىٰ يتراحم المتقاتلون بعضهم مع بعض، كما أوصانا النبي ﷺ بالرحمة، فقال: «**اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأةً ولا شيخًا**»[(١)]، كل هذه من مظاهر الرحمة التي جاء بها المبعوث رحمة

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٤/ ٤١٦٨).

للعالمين، حتىٰ إذا جاءت القيامة رد الله ﷻ ما فضل من هذه الرحمة، فالخلق من أولهم حتىٰ آخرهم لم يستوعبوا رحمة واحدة، فيتمم هذه الصفة بمائة رحمة، حتىٰ إن الخلق ليشرئبون من سعة رحمة الرب في عرصات يوم القيامة، حتىٰ جاء في بعض الآثار أن إبليس يشرئب بعنقه رجاء أن تطاله رحمة الله ﷻ.

هذه الرحمة جاء اقترانها بالاستواء؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، فمع استوائه علىٰ عرشه ومباينته لخلقه، قريب منهم برحمته، قريب منهم بعلمه ﷻ، قد أحاط كل شيء علمًا وأحصىٰ كل شيء عددًا، فهو علىٰ المُلك احتوىٰ، يدبر شؤون مملكته بعالمها العلوي والسفلي، يعلم ما يُصلح كل واحد من أفراد مملكته، فيغني هذا ويفقر هذا، ويصحح هذا ويسقم هذا، ويذل هذا ويعز هذا، ويبسط لهذا ويقبض عن هذا، فهو أعلم ما يصلح خلقه؛ قال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]

وهذا الاقتران ما بين ذكر استواء الرب ﷻ علىٰ عرشه وعلمه فيه الدلالة علىٰ معتقد الإمام مالك بن أنس الذي صُنفت هذه المقدمة علىٰ معتقده، حين دخل عليه رجل فقال: (يا أبا عبد الله، الرحمن علىٰ العرش استوىٰ، كيف استوىٰ؟) ولم يطرق سمعه نظير هذا السؤال، فطأطأ برأسه حتىٰ علاه الرحضاء -وهو العرق الشديد- من هول ما طرق سمعه، فلما استجمع أبو عبد الله قواه رفع رأسه وأجاب بجوابه الذي أصبح قاعدةً من القواعد التحف التي أُسس عليها مذهب السلف، قال: «**الاستواء معلوم**» -معلوم معناه في لغتنا معشر العرب- وهو الدال علىٰ الارتفاع والعلو والاستقرار والتمكن والمباينة، «**والكيف مجهول**»، لا يستطيع أحد أن يكيف هذا

الاستواء؛ لقول الرب ﷻ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥] نحن لم نر الله ﷻ فكيف لنا أن نصف كيفية هذا الاستواء؟ «**والإيمان به واجب**» علىٰ وفق ما دلت عليه النصوص الشرعية، (**والسؤال عنه بدعة**) لأن أصحاب النبي ﷺ ما سألوه عن هذا الاستواء، مع أنهم سألوه عن جملة من أسماء الرب ﷻ وأوصافه وأجابهم، لكنهم علموا أن الدلالة التي دلت علىٰ هذا الاستواء هي التي سقط في أذهانهم معناها، ثم قال: «**وما أراك إلا رجل سوء**» فأمر به فأُخرج من حلقته من مسجد النبي ﷺ[1].

فلذلك جرت هذه المسألة إلىٰ تحرير وتقرير هذه القاعدة وبيان هذه الفائدة التي أصبحت أصلًا في كل صفة يُسأل عنها، ونعلم أنه لا يُسأل عن كيفية الصفات؛ لأن الواجب علينا أن نؤمن بهذه الصفة مع فهمنا لمعناها الذي دلت عليه لغة العرب دون الخوض أو التعمق أو التكلف في البحث عن كيفيتها وعن كيفية الذات التي لا يحيط بها أحد لا مَلَك مقرب ولا نبي مرسل.

لذلك يحسن أن يذكر في الجملة القادمة تقرير مباحث الأسماء والصفات، وأن يبين بعد هذه المسألة ما يتعلق بهذا الباب العظيم الذي يعد من أجل أبواب التوحيد التي فيها الدلالة علىٰ حسن أسماء الحميد المجيد ﷻ.

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ح٨٦٧)، وفي الاعتقاد (١/ ١١٦)، واللالكائي في أصول الاعتقاد (٣/ح٦٦٤).

وَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتُ الْعُلَى

هذه الجملة يندرج تحتها تقرير أربع آيات، فإن الله وصف أسماءه بأنها حسنىٰ في أربع آيات؛ في سورة الأعراف حين قال الرب ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]

وفي سورة الإسراء: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]

وفي سورة طه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]

وخاتمة هذه المواطن في سورة الحشر التي قرر فيها ستة عشر اسمًا من أسماء الله الحسنىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

وقد وُصفت بأنها حسنىٰ ولم توصف بأنها حسنة؛ للدلالة علىٰ أنها قد بلغت في الحسن غايتها، لذلك باب أسماء الله الحسنىٰ باب توقيفي، لا يجوز لأحد أن يسمي الله أو يصفه بوصف حتىٰ يأتي الوحي من كتاب الرب ﷻ ومن سنة النبي ﷺ؛ بهذا الاسم أو الوصف، لأنها وُصفت بأنها حسنىٰ، فقد تستحسن العقولُ والأفهامُ اسمًا من الأسماء لكنه لا يليق بالرب ﷻ؛ لأن الله موصوف ومُتَّسمٌ من الأسماء بما هو أحسن.

لو جئنا إلىٰ واقعنا معشر المخاطبين بالوحي لرأينا أن الموصوف بالكرم

إنما يوصف بالكرم وصفَ مدح، ولو وصف بالسخاء لكان وصف مدح وثناء أيضًا، لكن الرب ﷻ لم يتسم بالسخي وإنما تسمىَّ بالكريم، لأننا لو فتشنا في دقيق الفرق بين معنىٰ الكريم والسخي لوجدنا أن وصف الكرم أبلغ في الدلالة من وصف السخاء، فلو رجع الأمر إلىٰ محض الاستحسان ومجرد الاستلطاف لكان هذا الباب قد أدخل فيه ما لا يليق بجلال وجمال وكمال الكبير المتعال، فلذلك كان هذا الباب بابًا توقيفيًّا.

الوجه الثاني: أن هذه الأسماء التي تسمىَّ بها الرب ﷻ مشتقة، قد اشتق من كل اسم الوصفُ الذي يليق به، فاشتق من اسم الجلالة العليم وصفُ العلم، ومن اسم الجلالة الرحيم وصف الرحمة، ومن اسم الجلالة المَلك وصف المُلك، ومن اسم الجلالة العزيز وصف العزة، ومن اسم الجلالة الجبار وصف الجبروت، وهكذا.

وهذا فيه دلالة علىٰ أن أسماء الله ﷻ حسنىٰ وليس لأحد من المخلوقين من اسمه ما يدل علىٰ الاشتقاق إلا ما خصهم الرب ﷻ، فالإنسان قد يُسمىٰ بعادل وهو موصوف بالظلم، أو برؤوف وهو من أقسىٰ الناس قلبًا، أو بعبد الله وهو من أبعد الناس عن مراتب العبودية وعن منازل الخضوع لرب البرية، فهذا من وجه كون هذه الأسماء حسنىٰ، فقد بلغت في الحسن غايتها.

والرب ﷻ قد شق لأكرم الخلق عليه وأحبهم إليه رسول الله ﷺ من الأسماء ما يتوافق مع مسماه، فهو محمد وهو أحمد؛ فهو أحمد الخلق لربه وبارئه، وهو محمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض، ويحمده أهل الدنيا ويحمده أهل الآخرة، وكما قال حسان:

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

فأسماء النبي ﷺ تدل علىٰ أوصاف قد جبله عليها ربه -تبارك وتعالىٰ-

فهو محمد وأحمد والماحي، الذي محا الله به الكفر، والحاشر الذي يحشر الناس علىٰ عقبه، والمعقب الذي لا نبي بعده. كل هذه الأسماء قد شق منها من الأوصاف ما يدل علىٰ صفات النبي ﷺ.

وقد نُسبت إلىٰ النبي ﷺ جملة من الأسماء بسبب عدم الفهم لسياق النصوص الشرعية، وليست من أسماء النبي ﷺ في شيء، فظن من ظن أنها من أسمائه ﷺ كما بين الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه «تحفة المودود بأحكام المولود» أن بعض الجهلة قد نسب إلىٰ النبي ﷺ اسمين وليسا من أسماء النبي ﷺ في شيء، فسماه بعضهم بـ (طه)، و(يس).

ولو تأملنا في فواتح السور، ما الفرق بين (طه) و(طس) وبين (يس) و(طس)؟ لماذا لم يسموا النبي ﷺ بـ (طس)؟ أو بـ (ن)؟ هذه بعض الحروف المقطعة كلها من فواتح السور التي أُفتتحت بعضُ سور القرآن الكريم بها، لبيان تعجيز العرب المخاطبين بهذا القرآن؛ أن هذا القرآن الذي أعياكم أن تأتوا بسورة من مثله ولو كان بعضكم مع إخوانه الجن لبعض ظهيرًا، فهذا القرآن ركب من هذه الحروف؛ من الألف، واللام، والميم، والصاد، والنون، والقاف، والطاء، والهاء، والياء، والسين، فما بالكم قد نكصتم علىٰ أعقابكم؟! وقد نزلت آيات التحدي تارةً بأن يأتوا بسورة من مثله، كما في البقرة، وتارةً أن يأتوا بعشر سور من مثله مفتريات، كما في هود، وتارةً بأن يأتوا بمثل هذا القرآن مستعينين بإخوانهم من الجن كما في الإسراء، وتارةً أن يأتوا بطرف آية كما في الطور، ومع ذلك عجز أساطين اللغة، وهم البلغاء والفصحاء والشعراء والأدباء أن يأتوا بمثل هذه الآيات البينات.

فهذا هو المراد من هذه الفواتح، لا أن يظن بأن (طه) بسبب دلالة ما بعدها؛ ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: ٢]، أو يس؛ ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ

﴿ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١ - ٣]، أنها من أسماء النبي ﷺ، هذه الأسماء ليست ثابتة له ﷺ بأي نص من النصوص الشرعية، فليحذر من أن يتقرب إلىٰ الله بمحبة النبي ﷺ بوجه غير الوجوه الشرعية.

الوجه الثالث: أنها ليست بمحصورة ولا يَعلم عددَها إلا من سمىَّ نفسه بها؛ لدلالة قول أعلم الخلق بالله: «**اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك**»[(١)]، سمىَّ الله نفسه في مواطن ثلاثة لا رابع لها، «أو» هنا بمعنىٰ أي أنزلته في كتابك، سميت نفسك باسم أنزلته في كتابك.

الموطن الثاني: «**أو علمته أحدًا من خلقك**»[(٢)]، وهو ما أرشدنا إليه النبي ﷺ من الأسماء التي لم يرد لها ذكر في القرآن الكريم؛ منها: الديان والستير والحيي؛ لم يرد لهم ذكر في القرآن الكريم، والنبي ﷺ الذي قد أوتي القرآن ومثله معه وهي السنة المطهرة، هو من أرشدنا إلىٰ هذه الأسماء الحسنىٰ.

الموطن الثالث: «**أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»[(٣)]، هذا الموطن لا يعلمه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، لا يعلمه أحد من خلق الله ﷻ.

لا من الأولياء ولا من الأنبياء ولا من الأصفياء ولا من الأتقياء ولا من الأخفياء، لا يعلم أحد منهم اسمًا من هذه الأسماء التي استأثر الله ﷻ بها في علم الغيب عنده، حتىٰ إن أعلم الخلق بالله وهو رسولنا ﷺ الذي كان

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

يقول: «**أما إني أعلمكم بالله وأشد له خشيةً**»[(١)]، يخبر عن نفسه وقد أذن الله ﷻ له بالشفاعة العظمىٰ، وهي المقام المحمود الذي سيأتي الحديث عنها لاحقًا، حين يخر لله ساجدًا، قال: «**فيفتح الله لي من محامده وحسن الثناء عليه ما لا أحصيه الآن**»[(٢)]، وهو يحدث بهذا الحديث يحدث عن وحيٍ من عند الله ﷻ: أنه لا يعلم في هذه الساعة حين يخر بين يديه ما هذا الثناء والدعاء والأسماء التي سيمجده ويحمده بها.

فهذا من وجه كون أسماء الله حسنىٰ، لذلك كل ما ورد في بعض الأحاديث من سرد أسماء الله الحسنىٰ فإنها مدرجة من بعض الرواة، وذلك أن الله ﷻ قد تعبدنا بإحصاء هذه الأسماء، كما أخبرنا النبي ﷺ: «**إن لله تسعةً وتسعين اسمًا، مائةً إلا واحدةً، من أحصاها دخل الجنة**»[(٣)]، فمن أعظم أسباب دخول جنة دار السلام: إحصاء أسماء الملك القدوس السلام.

وإحصاء أسماء الله الحسنىٰ لا يتأتىٰ لأحد إلا إذا حقق المراتب الثلاث التي أشار إليها الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه «بدائع الفوائد».

المرتبة الأولىٰ: إحصاء ألفاظ الأسماء، بأن نحفظ هذه الأسماء: الله، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الحكيم، الغفور، الودود، التواب، الحليم، الشكور؛ ونعدد هذه الأسماء إلىٰ أن نبلغ بها تسعةً وتسعين اسمًا، وقد جمعها شارح هذه المقدمة، وهو شيخنا أبو عبد الرزاق العلامة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

عبد المحسن العباد البدر، المدرس في مسجد النبي ﷺ مستفيدًا في جمعها ممن سبقه وهما الحافظ ابن حجر العسقلاني والشيخ محمد بن صالح بن عثيمين -رحمهم الله تعالىٰ أجمعين- وقد أحسن إلينا العلماء وكفونا مشقة العناء وأحصوا لنا هذه الأسماء.

المرتبة الثانية: وهي مرتبة فهم معاني الأسماء؛ فمثلًا: **القدوس** الذي ورد ذكره في آيتين من القرآن الكريم لا ثالث لهما، في سورة الحشر وفي سورة الجمعة، ما معنىٰ القدوس؟ أي المتنزه عن كل عيب ونقص وسوء، المتقدس، ومنه بيت المقدس، أي البيت المطهر؛ ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، أي: نطهرك مما لا يليق بك من الظن، لذلك كثيرًا ما يرد اقتران معنىٰ التسبيح مع معنىٰ التقديس، كما في قول الملائكة في الآية الثلاثين من سورة البقرة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ونظير ذلك دعاء النبي ﷺ في الركوع: «**سبوح قدوس رب الملائكة والروح**»[(١)]؛ لأن معنىٰ التسبيح التنزيه، تنزيه الله حين أقول: سبحان الله، أي: أنزه الله عن كل نقص وعيب وسوء، وكذلك حين أقدس الله، أي: أنزه الله عن كل عيب ونقص وسوء.

وكذلك عندما أحفظ اسم الجلالة «**الودود**» الذي ليس له ذكر في القرآن الكريم إلا في آيتين لا ثالث لهما، في آية هود وفي آية البروج، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤]، أعرف معنىٰ هذا الاسم كما فسره البخاري؛ بأنه هو الذي يحب عباده ويحبه عباده؛ لذلك لم يرد اقترانه إلا بالرحيم والغفور، فإذا غفر الله لك أحبك، وإذا رحمك

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ح٤٨٧).

الله أحبك، لكن الواحد منا قد يغفر للمخطئ، قد يعفو عن المسيء، قد يصفح عمن أخطأ في حقه، لكن ليس بالضرورة أن يحبه، إذا أخطأ في حقك رجل في الشارع وصدم سيارتك، فعفوت عنه، هل بالضرورة أن تحبه؟ لم يكلفك الله ﷻ أن تحبه، إذا أخبرك رجل بأنه قد اغتابك أو أنه سرق مالك، فعفوت عنه وغفرت له ورحمته، ليس بالضرورة أن تحبه، لكن الرب ﷻ قد اتصف بأوصاف ليس في مقدور الخلق أن يتصفوا بها، وهو أنه ﷻ إذا رحمك فمن أمارات رحمته بك أن يحبك، وإذا غفر الله ﷻ لك الذنوب وستر لك العيوب، فمن علامات ذلك أن يحبك، وهذا من دلالة كون هذه الأوصاف أوصاف عليَّه، لا يستطيع أن يبلغ أحد منا هذه الأوصاف العلىٰ، ﷻ وتقدست أسماؤه.

المرتبة الثالثة: أن نتعبد لله بالعمل بهذه الأسماء، والله تعبدنا بها علىٰ ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أن نتعبد لله بظاهر هذه الأسماء فمثلًا الرحيم؛ نحن متعبدون بظاهره، بأن نُؤمن برحمته الواسعة والواصلة للخلق، وبأن نرحم خلق الله؛ كما جاء في الحديث: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»[(١)].

النوع الثاني: أن نتعبد بأضداد معاني هذه الأسماء، نأتي إلىٰ اسم الجلالة المتكبر، فنتعبد بضده وهو التواضع؛ وما تواضع أحد لله إلا رفعه، والرب ﷻ قال في الحديث القدسي: «**الكبرياء ردائي والعزة إزاري، فمن**

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤/ح١٩٢٤)، وأبو داود في سننه (٤/ح٤٩٤١)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٤/ح١٩٢٤).

نازعني واحدًا منهما قذفته في النار»[(١)].

والنوع الثالث: ما نتعبد بظاهره تارةً وبضده تارةً، وهو العزيز، تارةً نتعبد بظاهره، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، نكون أعزاء علىٰ أعداء الله، وتارةً نتعبد بباطنه، وهو التذلل، ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، فمن وفق لهذه المراتب الثلاث فإنه يوفق لهذا الإحصاء الذي جزاؤه الجنة.

وقد جمع النبي ﷺ هذه المراتب الثلاث[(٢)] في حديث واحد، وهو حديث أم المؤمنين أم عبد الله عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أنها قالت: يا رسول الله، أرأيت إن علمت أي ليلة هي ليلة القدر، ما أقول فيها؟ فقال لها رسول الله ﷺ: قولي: «**اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني**»[(٣)]، فهذه المراتب جمعتها هذه الدعوة، اللهم إنك عفو، هذا إحصاء الاسم، تحب العفو، هذا فهم الاسم، فاعف عني، هذا التعبد بهذا الاسم، فجمعت هذه المراتب في هذا الحديث، فلذلك ينبغي أن ننتخب في كل دعوة من دعواتنا ما يناسبها من الأسماء، وهكذا دعوات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- تختم بما يناسبها من الأسماء الحسنىٰ، فإن هذا من حسن التقدمة بين يدي الرب جل جلاله في الدعاء وحسن الختام به، أن تقدم بين يدي هذا الدعاء حسن الطلب والثناء وأن تختمه بما يناسبه من هذه الأسماء.

نظير ذلك لما سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه النبي ﷺ أن يعلمه دعاءً يدعو به

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ح٤٠٩٠)، وابن ماجه في سننه (٢/ح٤١٧٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/ح٤٠٩٠).

(٢) وهي: الإحصاء، والفهم، والتعبد بها.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٥/ح٣٥١٣)، وابن ماجه في سننه (٢/ح٣٨٥٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١/ح٣٥١٣).

في صلاته وفي بيته، فقال له النبي ﷺ: «**يا أبا بكر، قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا**»[(١)]، وفي رواية مسلم: «**كبيرًا**»، «**ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»[(٢)]، إذًا ناسب أن يتعبد لله باسمين قد تضمنهما معنىٰ هذا الدعاء، فهذا من دلالة هذه الأحاديث وهذه الدعوات علىٰ هذه المراتب التي تضمنها معنىٰ الإحصاء.

وآخر معنىٰ من المعاني التي ينبغي أن يشار إليها فيما يتعلق بأسماء الله الحسنىٰ: أن أسماء الله ﷻ التي يجوز أن تطلق علىٰ غير الله ﷻ من عموم المخلوقين، فللخالق من هذه الأسماء ما يليق بغناه وقوته وجبروته وكبريائه، وللمخلوق منه ما يليق بافتقاره وضعفه وانكساره وصغره، فمما أطلقه الرب ﷻ علىٰ نفسه اسمه: الحي، ويطلق علىٰ المخلوق أيضًا أنه الحي، لكن شتان بين حياة الحي الذي لا يموت وبين حياة المخلوق الذي قد سبقت حياته العدم، وتلحق حياته الفناء، شتان ما بين سمع الخالق ﷻ الذي يسمع دبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة الصماء في الليلة الظلماء من سمع المخلوق الذي لا يجاوز المكان الذي هو فيه، بل ربما غاب عنه بعض مواطن الكلام الذي هو فيه، كما في حديث المجادلة التي جاءت إلىٰ النبي ﷺ تجادل زوجها وهي خولة بنت حكيم رضي الله عنها، وقيل: بنت ثعلبة، وقيل: اسمها خويلة، ألفاظ متعددة دلت عليها الروايات، جاءت تشتكي زوجها أوس بن الصامت رضي الله عنه.

وتفاصيل قصتها رواها إمام المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ح٨٣٤)، ومسلم في صحيحه (٤/ح٢٧٠٥).

(٢) التخريج السابق.

في تفسير آية المجادَلة أو المجادِلة حين جاءت تشتكي إلىٰ النبي ﷺ، تقول عائشة رضي الله عنها: الحمد الذي وسع سمعه الأصوات، إني لفي طرف الحجرة ويخفىٰ علي بعض حديث المجادلة وسمعها الله من فوق سماوات، أين سَمْعُ الخالق؟ الذي وصف نفسه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وأين سَمْعُ المخلوق؟ الذي وصفه الرب جل جلاله بالسمع: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، أين سمع وبصر المخلوق من سمع وبصر الرب جل جلاله؟

تقول خولة: يا رسول الله، إن أوسًا ظاهر مني، الظهار هو: أن يقول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، أو يذكر إحدىٰ محارمه، أنت علي كظهر أختي، كظهر عمتي، خالتي، ابنتي، جدتي، أي: ظاهر، يحرم عليه أن يلقاها، وفي ذلك الدلالة علىٰ تحريمه زوجتَه عليه، وهذا كان في الجاهلية ضرب من ضروب الطلاق، ونوع من أنواع الفراق، فجاءت تشتكي إلىٰ النبي ﷺ لعله قد نبئ بالوحي عما هو مستقر في نفوس أهل الجاهلية، قالت: يا رسول الله، إن أوسًا ظاهر مني، فقال لها النبي ﷺ: «**لا شيء لك عندي**». فأرادت أن تستمطر وابل رحمة النبي ﷺ لعله أن ينقذها مما هي فيه من هذه الورطة، فقالت: يا رسول الله، نثرت له بطني -كناية عن كثرة الولادة- وجعلت صدري له سقاءً وحجري له وعاءً، فقال لها النبي ﷺ: «**لا شيء لك عندي**». فلا زالت تطرق باب سؤال النبي ﷺ لعله أن يوحىٰ إليه بشيء، قالت: يا رسول الله، إن لي منه أولادًا إن ضممتهم إلي جاعوا وإن ضممتهم إليه ضاعوا، لا أستطيع أن أطعمهم ولا يستطيع أن يربيهم، وكل ذلك والنبي ﷺ يجيبها بقوله: «**لا شيء لك عندي**». حتىٰ إذا أدركت أن

مفاتيح الفرج إنما هي عند علام الغيوب ومفرج الكروب ﷻ، قالت: اللهم إني أشكو إليك ما صنع أوس[(١)]، وعائشة في طرف الحجرة التي وصفت في بعض الروايات في قيام النبي ﷺ أنه كان إذا قام في صلاته من الليل وعائشة رضي الله عنها نائمةً في حجرتها إذا أراد النبي ﷺ أن يسجد فإنه يغمز رجليها فتثنيهما فيسجد النبي ﷺ في هذا الموطن، ثم إذا قام بسطت رجليها[(٢)]، هذا المقام الصغير مقام حجرة عائشة رضي الله عنها ومع ذلك لأدب هذه المجادلة وحوارها مع النبي ﷺ بخفض الصوت لم تسمعها عائشة، وسمعها الله من فوق سبع سموات، فأين سمع الخالق وأين سمع المخلوق؟

وقس علىٰ ذلك بقية الصفات، أين رضىٰ الخالق من رضىٰ المخلوق؟ أين غضب الخالق من غضب المخلوق؟ أين يد الخالق المبسوطة بالخير من يدي المخلوق؟ وعدد الصفات التي أخبرنا عنها الرب ﷻ بالوحي، إما وحيًا أوحاه إلىٰ نبيه ﷺ في القرآن الكريم أو في السنة المطهرة.

فهذه الأسماء إذا أطلقت علىٰ الخالق والمخلوق: فللخالق منها ما يليق بكماله وغناه، وللمخلوق ما يليق بافتقاره وضعفه.

والأسماء التي أطلقت علىٰ المخلوقين وهي أسماء لله ﷻ كثيرةٌ جدًّا، مبسوطة في القرآن الكريم، فالله ﷻ أطلق علىٰ بعض خلقه أنه متكبر، جبار، وعزيز، ولهؤلاء من هذه الأوصاف ما يليق بافتقاره وللخالق ﷻ ما يليق بغناه.

---

(١) أخرجه النسائي في سننه (٦/ح٣٤٦٠) وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي.

(٢) يشير إلىٰ حديث عائشة رضي الله عنها: (**كُنْتُ أَنَامُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَرِجْلَايَ فِي قِبْلَتِهِ، فَإِذَا سَجَدَ غَمَزَنِي فَقَبَضْتُ رِجْلِي، فَإِذَا قَامَ بَسَطْتُهُمَا. قَالَتْ: وَالْبُيُوتُ يَوْمَئِذٍ لَيْسَ فِيهَا مَصَابِيحُ**)، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه (١/ح٣٨٢)، ومسلم في صحيحه (٢/ح٥١٢).

وهناك أسماء لا تطلق إلا علىٰ الخالق، كالخالق والمحيي والمميت[١] والرحمن والصمد، كل هذه الأسماء لا يجوز أن تطلق إلا علىٰ الخالق جل في علاه.

وهذا آخر ما يمكن أن ينوه وينبه عليه في هذا الباب، وهو باب واسع الأكناف، بعيد الأطراف، لكن حسبنا أن نوهنا علىٰ بعض ما فيه من المباحث المتعلقة، ومن أراد التوسع فله أن يطالع الشرح، ووراء الشرح الكتب التي بسط فيها القول في هذه المباحث.

(١) المحيي والمميت ليسا من أسماء الله تعالىٰ؛ بل هي صفات.

لَمْ يَزَلْ بِجَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ، تَعَالَى أَنْ تَكُونَ صِفَاتُهُ مَخْلُوقَةً، وَأَسْمَاؤُهُ مُحْدَثَةً.

هذه الجملة فيها تقرير وتأكيد للجملة السابقة، وهو أنه ﷻ موصوف بجميع أسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، قائمة بالذات المقدسة، ليس في شيء من هذه الأسماء مؤول أو معطل أو ممثل، بل هي أسماء تليق بجلال وجمال وكمال ربنا ﷻ.

فتعالىٰ أن يكون شيء من هذه الصفات مخلوقةً أو يكون شيء من هذه الأسماء محدث، بل هي أوصاف قائمة بالذات وأسماء تسمىٰ بها البر الجواد ﷻ.

ولما جاء ذكر الأسماء الحسنىٰ وأنها نعتت بأحسن الأسماء، حسن أن تذكر هذه الأوصاف بأنها أوصاف عُليا، وأوصاف الرب ﷻ لا تخرج عن وصفين؛ إما أن تكون صفات ذاتية أو فعلية.

أولًا: الذاتية هي الصفات القائمة اللازمة للذات أزلًا وأبدًا، كصفة الحياة، فهو ﷻ حي حياةً أزليةً أبديةً، وموصوف بالعلم أزلًا وأبدًا، وموصوف بالسمع أزلًا وأبدًا، وموصوف بالبصر أزلًا وأبدًا، وموصوف بالعلو أزلًا وأبدًا، فهذه صفات ذاتية لا تنفك عن الذات بحال من الأحوال، فلا تعلق بشيء من المشيئة أو الإرادة في هذه الصفات، بل هي متعلقة بالذات.

ثانيًا: الصفات الفعلية، وهي المتعلقة بمشيئة الله وإرادته، فهي من صفاته لكن يفعلها متىٰ شاء كيف شاء مع من شاء، فصفة الرضا يفعلها الرب ﷻ مع الأبرار لكن لا يفعلها مع الفجار، صفة الغضب يفعلها الرب ﷻ مع

الفجار لكن لا يفعلها مع الأبرار، صفة النزول يفعلها الرب ﷻ في المواطن التي دلت عليها السنة في الثلث الأخير من الليل، والموطن الثاني عشية يوم عرفة، المجيء الذي جاء ذكره: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، قيد بيوم القيامة، ولا فرق في ثبوت هذه الصفات وهذه الصفات، كلها صفات الرب ﷻ لكن هذه قائمة بالذات لا تنفك عنها أزلًا وأبدًا، وهذه متعلقة بمشيئة الله وإرادته، يفعلها متىٰ شاء كيف شاء.

وسيأتي ذكر بعض الصفات التي لها تعلق بالصفات الذاتية من وجه ولها تعلق بالصفات الفعلية من وجه آخر، وهي التي أشار إليها بقوله:

كَلَّمَ مُوسَى بِكَلاَمِهِ الَّذِي هُوَ صِفَةُ ذَاتِهِ لا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ فَصَارَ دَكًّا مِنْ جَلاَلِهِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلاَمُ اللهِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ فَيَبِيدَ، ولا صِفَةٍ لِمَخْلُوقٍ فَيَنْفَدَ.

هذه الفقرة فيها ذكر إثبات صفة الكلام للملك القدوس السلام، ووقع التمثيل بهذه الصفة لأنها صفة تجمع ما بين الصفات الذاتية والفعلية، وصفة الكلام بالنظر إلىٰ أنها صفة أزلية أبدية لا أول لها ولا آخر لها هي صفة ذاتية، ومن جهة أن الله ﷻ يكلم بعض خلقه متىٰ ما شاء كيف شاء هي صفة فعلية، كما كلم موسىٰ كليمه، كلمه في زمان محدود وفي مكان موعود، الزمان المحدود، حدده أولًا بثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر ليال؛ ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ومن حذا حذوه من تلامذته كمجاهد وبعض من نقل عنهما هذا التفسير، فسروا هذه الثلاثين بأنها الثلاثين من شهر ذي القعدة؛ ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، هي عشر ذي الحجة، إذًا هذا الزمان المحدود حدد بهذا الزمن، والمكان الموعود طور سيناء، أقسم الله ﷻ به لعظمته؛ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ١، ٢]، إذًا الكلام صفةٌ فعليةٌ لأنه جاء في هذا الزمان المحدود وفي هذا المكان الموعود مع هذا النبي، النبي الذي أكرمه الله من بين سائر خلقه بأن كلمه علىٰ هذه البسيطة، ليس لأحد من الخلق هذه المكرمة، لكن من جهة مشاركة موسىٰ في سماع الله من وراء حجاب شاركه نبيان عظيمان، شاركه آدم، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]؛ وهي الكلمات التي جاءت في سورة الأعراف؛ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]،

وشاركه نبينا ﷺ ليلة عُرج به إلىٰ السماء حين فرض الله ﷻ عليه الصلوات، لكن عُرف موسىٰ بأنه الكليم؛ لأن الله ﷻ كلمه في الأرض ولم يكلمه في السماء كما كان آدم ونبينا ﷺ، حين كلمه الله ﷻ وهو مستو علىٰ عرشه بائن من خلقه ﷻ، أسمع موسىٰ كلامه الذي هو صفة ذات من جهة كون الكلام قد اتصف به الرب ﷻ أزلًا وأبدًا، وصفة فعله من جهة أنه اختص بمشيئته وإرادته موسىٰ عليه السلام بهذه الصفة، فهو وصف من أوصاف الرب ﷻ لا خلق من خلقه كما ابُتليت طائفة من الأمة بدعوىٰ أن القرآن مخلوق؛ تعالىٰ الله ﷻ عن قولهم علوًّا كبيرًا، هذا القول المارق الذي فيه تنقص للرب ﷻ، وإذا كان الرب ﷻ قد عاب علىٰ بني إسرائيل اتخاذهم عجلًا لا يتكلم؛ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [طه: ٨٩] كيف تعبدون من لا يقول لكم قولًا ولا يملك لكم ضرًّا ولا نفعًا.

ثم ذكر صفةً أخرىٰ وهي صفة التجلي: **(وَتَجَلَّىٰ لِلْجَبَلِ فَصَارَ دَكًّا مِنْ جَلَالِهِ)**، وهذه الصفة صفة فعلية، لأن الرب ﷻ قد حصل منه التجلي لهذا الجبل؛ ليري موسىٰ عليه السلام أن لا قدرة له علىٰ أن يرىٰ ربه ﷻ، الذي هو نور أنىٰ يراه؟

قال ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، لما سمعت منه الأذنان اشتاقت للنظر منه العينان، فبين له الرب ﷻ أن هذا المقام ليس مقام رؤية لعدم احتمال أجساد البشر للرؤية، لكن مقام الآخرة هو مقام الرؤية حين يمد الرب ﷻ عباده ببسطة في الجسم فيدخل أهل الجنةِ الجنةَ علىٰ طول أبيهم آدم ستون ذراعًا في السماء[1]،

---

(١) يشير لحديث النبي ﷺ: «**خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا**»، الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ح٣٣٢٦)، ومسلم في صحيحه (٨/ح٢٨٣٤).

فيكون الواحد يقرب من ثلاثين مترًا، لا شك لما يعطىٰ من القوة والمتانة والصلابة ما يحتمل معه هذا النعيم المقيم الذي ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وهذا التجلي يفسره ابن عباس رضي الله عنهما أنه كشف مقدارًا يسيرًا من حجاب النور الذي بينه وبين خلقه فساخ الجبل وأصبح دكًّا هشيمًا من أثر هذا النور الذي صوب إلىٰ هذا الجبل، إذًا هذه الآية فيها الدلالة علىٰ اتصاف الرب جل جلاله بصفات ذاتية وصفات فعلية.

فالقرآن كلام الله، لو كان كما يقول المارقون: مخلوقًا لباد ومات وفني وانعدم، ولو كان صفةً لمخلوق لنفد، لأنه ما من مخلوق إلا وله في صفاته قوة، لكن تنفد هذه القوة؛ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

لا بد أن تنفد صفة المخلوق، لكن أين هذه الصفة؟ ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [لقمان: ٢٧]، لو قدر أن كل أشجار الأرض استحالت أقلامًا يكتب بها وتحولت بحار الأرض إلىٰ مداد وحبر تمد هذه الأقلام لتكسرت الأقلام وفنيت البحار ولم تنفد كلمات الرب جل في علاه.

ونرجع الآن إلىٰ قراءة المنظومة لفك بعض ألفاظها، وحل ألفاظها.

وقد جاء فكها وتوضيحها في الشرح السابق، لكن نبين بعض ما فيها من الألفاظ، ونقف علىٰ مباحث الإيمان بالقدر والقضاء خيره وشره.

نأتي إلىٰ جزء من المنظوم نتكلم عليه كما فعلنا في النثر:

الحمدُ لله حمدًا ليس مُنحصرا ... علىٰ أياديه ما يخفىٰ وما ظهرَا
ثم الصلاةُ وتسليمُ المهيمنِ ما ... هبَّ الصبَّا فأدرَّ العارضَ المَطرَا
علىٰ الذي شاد بنيانَ الهُدىٰ فسَما ... وساد كلَّ الوَرَىٰ فخرًا وما افتخرَا
نبيِّنا أحمد الهادي وعترته ... وصحبِه كلِّ مَن آوىٰ ومن نصرَا
وبعدُ فالعلمُ لم يظفر به أحدٌ ... إلا سَمَا وبأسباب العُلىٰ ظفرَا
لا سيما أصل علم الدِّين إنَّ به ... سعادةَ العبد والمنْجَىٰ إذا حُشرَا

هذه المنظومة أودعها الشارح رضي الله عنه في الصفحة التاسعة والأربعين، فيه البدء بما يبتدئ به تأسيًا بالقرآن الكريم وبسنة النبي ﷺ حيث افتتحت آيات القرآن الكريم بالحمد.

وحمد الله ﷻ لا يمكن لأحد أن يبلغ منتهاه بل هو الحامد لنفسه بما لا يبلغه أحد من الورىٰ، فلا يمكن أن ينحصر.

علىٰ أياديه: وهي نعم الله ﷻ، وفرق ما بين اليد التي هي الصفة المبسوطة والأيادي وهي النعم، وسيأتي الحديث عن هذه لاحقًا، سواء كانت هذه النعم ظاهرةً أو باطنةً؛ كما قال الله ﷻ في سورة لقمان: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، وفي القراءة العشرية المتواترة: ﴿**وأسبغ عليكم نعمةً ظاهرةً وباطنةً**﴾، وهذه النعمة المفردة هي لا إله إلا الله، والنعم العامة هي آثار العبودية التي تعبدنا وأكرمنا الله ﷻ بأن جعلنا عبيدًا له.

ثم يأتي بعد حمد الله ﷻ من رفع الله له ذكره؛ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، فلا يذكر الله إلا ذكر معه رسول الله ﷺ، فيذكر ويصلىٰ ويسلم عليه.

ما هبَّ الصبَّا فأدرَّ العارضَ المَطرَا: الصبا هو المطر، وروايتان في هذا

البيت، إما أن يقال: ما هب الصبا فأدر العارض المطرا، فيكون الذي أدر العارض هو الصبا، وهي الريح، الريح أدرت هذا المطر، فيكون هو المفعول والمطر بدل منه، ورواية ثانية للبيت: ثم الصلاة وتسليم المهيمن ما هب الصبا فأدر العارضُ المطرا، فيكون العارض هو الذي أدر وأنزل المطر بإذن الله ﷻ، علىٰ نبينا ﷺ الذي شيد الله به بنيان هذا الدين حتىٰ سما وعلا وساد جميع الأمم شرقها وغربها، وجعله الله ﷻ سيد ولد آدم ومع ذلك كان يقول: ولا فخر ﷺ، وكان يقول: «**لا تفضلوني علىٰ الأنبياء**»[(١)]، ولما قيل له: يا خير البرية، قال: «**ذاك إبراهيم**»[(٢)]، كل ذلك بُعدًا منه عن الافتخار وتواضعًا منه عليه الصلاة والسلام، وعَتْرته: وهم أهل بيته، وعلىٰ أصحابه، وعلىٰ كل من آوىٰ ومن نصرا، علىٰ المهاجرين والأنصار، علىٰ الذين آووهم ونصروهم في المدينة.

ثم بين أن هذا العلم الذي تضمنه في الأبيات لم يظفر به أحد، كائنًا من كان إلا رفعه الله بهذا العلم، لا سيما من وفق لأصل العلوم وهو التوحيد الذي به سعادة العبد في الدارين، وهو العلم الذي تقر به العين.

(١) يشير لحديث طويل وجاء فيه: «**لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ**»، الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ح٣٤١٤)، ومسلم في صحيحه (٧/ح٢٣٧٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٧/ح٢٣٦٩).

باب: ما تعتقده القلوب وتنطق به الألسن من واجب أمور الديانات

وأولُ الفرض إيمانُ الفؤاد كذا ... نُطقُ اللِّسانِ بما في الذِّكر قد سُطرَا
أنَّ الإلهَ إلهٌ واحدٌ صَمدٌ ... فلا إله سوىٰ مَن للأنام برَا
ربُّ السموات والأرضين ليس لنا ... ربٌّ سواه تعالىٰ مَن لنا فطرَا
وأنهُ موجدُ الأشياء أجمعها ... بلا شريك ولا عَون ولا وُزرَا
وهو المُنزه عن ولد وصاحبة ... ووالد وعن الأشباه والنُّظرَا

هذا الباب نظير ما عقده ابن أبي زيد القيرواني في مقدمة رسالته، وهو ما يجب علىٰ المسلم أن يودعه في الجنان وأن يترجم عنه باللسان وأن يعمل به بالأركان، وهي الجوارح، وأول هذه الفروض أن نودع هذه القلوب والأفئدة الإيمان الذي لا يجد أحد منا طعم الإيمان حتىٰ يخالط بشاشته القلوب.

ثم بعد ذلك نترجم عن هذا الإيمان باللسان، وذلك بقولنا: «**لا إله إلا الله، محمد رسول الله**»، كما سطر ذلك وكتب في الذكر، وهو القرآن الكريم.

وقد دلت آيات القرآن الكريم علىٰ أن الله ﷻ هو الإله أي المعبود، الواحد الذي لا شريك له، الصمد الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها، فليس هناك خالق للأنام شاركه في كونه قد برأ وصور هذا الخلق، فهو البارئ الخالق وهو الذي ربىٰ جميع العالمين، ومن ذلك تربيته السماوات ومن فيهن والأراضين ومن فيهن، فليس لأحد في السماوات ولا في الأرض رب سوىٰ الله ﷻ فهو الذي فطر الخلق وأنشأهم هذه النشأة.

وهو الذي أوجد جميع الأشياء بلا استثناء ولم يشاركه في هذا الإيجاد مشارك ولم يعاونه معاون، وليس له وزير يؤازره، وهو منزه عن ولد يعينه وعن صاحبة تنصره، وعن والد يوجهه، وعن شبيه يماثله وعن نظير يساميه، جل في علاه.

لا يبلغن كُنْه وَصْفُ الله واصفهُ ... ولا يحيط به علمًا مَن افتكرَا
وأنَّه أوَّل باق فليس له ... بدءٌ ولا منتهىٰ سبحان من قدرَا
حيٌّ عليمٌ قديرٌ والكلام له ... فردٌ سميعٌ بصيرٌ ما أراد جرَىٰ
وأنَّ كرسيَّه والعرشَ قد وسعَا ... كلَّ السموات والأرضين إذ كبرَا
ولم يزل فوق ذاك العرش خالقُنا ... بذاته فاسأل الوحيين والفطرَا
إنَّ العلوَّ به الأخبارُ قد وردتْ ... عن الرَّسول فتابعْ مَن رَوىٰ وقرَا
فالله حق علىٰ المُلك احتوىٰ وعلىٰ ... العرش استوىٰ وعن التكييف كُن حَذِرَا
والله بالعلمِ في كلِّ الأماكن لا ... يخفاه شيءٌ سميعٌ شاهدٌ ويرَىٰ

ثم بين أنه مهما اجتهد العبد في التعرف علىٰ الله ﷻ فإنه لا يمكنه بحال من الأحوال أن يحيط به علمًا، وعليه أن يشغل نفسه بمعاني أوصافه ﷻ، لا يتفكر في كيفياتها، أو أن يروم بلوغ كنه هذه الصفات أي حقائقها، موصوف بأنه أول لا شيء قبله، وأنه آخر لا شيء بعده، وأنه ظاهر لا شيء فوقه، وأنه باطن لا شيء دونه، فهو حي عليم قدير سميع بصير موصوف بالكلام، وهو فرد لا ند له، له القدرة أن يُجري الأمور علىٰ وفق ما أراد.

مستو علىٰ عرشه، وبين يدي عرشه كرسيُّه الذي وسع السماوات والأرض، فما السماوات السبع والأرضون السبع بالنسبة للكرسي إلا كحلقة

ملقاة في أرض فلاة، كأن أحدنا نزع الخاتم من يده وألقاه في الصحراء، والكرسي بالنسبة للعرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والله فوق العرش يعلم ما العباد عليه[(١)].

وهو ﷻ مستو علىٰ عرشه بذاته بائن من خلقه، دل علىٰ ذلك الوحيان، القرآن الكريم والسنة المطهرة، وصدَّق ذلك الفطرُ السليمة والعقول المستقيمة.

وعلو الله ﷻ قد وردت أخباره عن النبي ﷺ، وإذا أردت ذلك فتتبعها من واقع الروايات والقراءات، والرب ﷻ وهو مستو علىٰ عرشه قد حوىٰ جميع الممالك العلوية والسفلية، مع استوائه علىٰ العرش، هذا الاستواء نؤمن بمعناه ونفوض كيفيته له، واحذر أشد الحذر من أن تخوض فيما خاض فيه المبطلون المارقون.

وأما علمه؟ فهو في كل مكان معنا بسمعه وبصره وشهادته ورؤيته ﷻ.

وأنَّ أوصافَه ليست بمُحدَثة ... كذاك أسماؤه الحُسنىٰ لِمَن ذكرَا
وأن تنزيلَه القرآنَ أجمعَه ... كلامُه غيرُ خلق أعجز البشرَا
وحْيٌ تكلّمَ مولانا القديمُ به ... ولم يزل من صفات الله مُعْتبرَا
يُتلَىٰ ويُحمل حفظًا في الصدور كما ... بالخطِّ يُثبِتُه في الصُّحف مَن زَبَرَا

ثم ذكر مباحث الصفات، وأن صفات الرب ﷻ صفات قائمة بالذات ليست بصفات محدثة، وأن هذه الأسماء التي دلت علىٰ هذه الصفات أسماء

---

(١) يشير إلىٰ حديث: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إلا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ**»، الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ح٣٦٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (١/ح١٠٩).

حسنىٰ، ذكرت هذه الأسماء في نصوص الوحيين، وهذا الوحي قد أودعه الله ﷻ في القرآن وسنة سيد بني عدنان، وأن من جملة هذه الأوصاف صفة الكلام، وهو الكلام الأزلي الأبدي.

وقوله هنا: (وحْيٌ تكلَّم مولانا القديمُ به).

هو وصف للكلام وليست من أسماء الرب ﷻ القديم، ومر معنا أنه لا حرج من الإخبار عن الرب ﷻ أو عن شيء من أسمائه أو أوصافه بما لا يقتضي النقص، فهو قد وصف هذه الصفة بالقدم بمعنىٰ الأزلية والأولية.

ولم يزل من صفات الله المعتبرة، يعتبر من صفات الرب ﷻ ويتفكر فيها المتفكرون ولا يحيطون بها علمًا، فهذه الدلائل التي دلت علىٰ الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ تتلىٰ وتحمل إما في الصدور حفظًا وإما في السطور قراءةً، إما أنها أودعت في القرآن مسطرةً، وإما أنها أودعت في صدور الحفظة.

وأن موسىٰ كليمُ الله كلَّمه ... إلهُهُ فوق ذاك الطور إذ حضرَا
فالله أسمعه مِن غير واسطةٍ ... من وصفه كلمات تحتوي عِبرَا
حتىٰ إذا هام سُكرًا في محبَّته ... قال الكليم: إلَهي أسألُ النَّظرَا
إليك قال له الرحمن موعظةً ... أنَّى ترانِي ونوري يُدهشُ البصرَا
فانظر إلىٰ الطور إنْ يثبت مكانته ... إذا رأىٰ بعضَ أنواري فسوف ترَىٰ
حتىٰ إذا ما تَجلىٰ ذو الجلال له ... تصدَّع الطورُ من خَوف وما اصطبرَا

ثم ذكر قصة موسىٰ عليه السلام حين كلمه الله ﷻ بعد مضي أربعين ليلة، وهو فوق طور سيناء فأسمعه الله ﷻ كلامه من غير واسطة من وراء حجاب، فتاقت نفس موسىٰ أن ترىٰ الله ﷻ فبين له تعذر ذلك؛ وهذا سؤال جاز

لموسىٰ أن يسأله، ولو كان سؤال يحرم أن يسأله لعاتبه الله كما عاتب نوح لما سأله نجاة ابنه؛ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦]، وفي قراءة عشرية متواترة: ﴿**إنه عَمِلَ غيرَ صالح فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾، فلم يعاتب موسىٰ بهذا السؤال، لكنه أراه عدم قدرته علىٰ هذا المقام إلا في الجنة دار السلام.

ويؤاخذ علىٰ المصنف قوله: «**حتىٰ إذا هام سُكرًا في محبَّته**»؛ لأن لفظ السكر لم يرد في مدحه لا كتاب ولا سنة ولا نقل ولا عقل، بل إذا أطلق هذا اللفظ فإنما يطلق علىٰ سبيل الذم، ولو قال: وقام ذلك حتىٰ إذا جال فكرًا في محبته، قال الكليم: إلهي أسأل النظر، لكان أحسن من أن يذكر الهيام والسكر، فإنه مما ينبغي أن ينزه عنه هذا المقام، ومن أراد أن يتوسع في الإنكار علىٰ مثل هذا اللفظ فليطالع كتاب العلامة ابن قيم الجوزية، وهو «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» فليطالع منزلة السكر وكيف أنكر أشد النكير علىٰ شيخ الإسلام أبي عبد الله الهروي إيراده هذه المنزلة من منزلة السائرين ومن درجات العابدين.

وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حُلْوِهِ وَمُرِّهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ قَدْ قَدَّرَهُ اللهُ رَبُّنَا، وَمَقَادِيرُ الأُمُورِ بِيَدِهِ، وَمَصْدَرُهَا عَنْ قَضَائِهِ. عَلِمَ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلَ كَوْنِهِ، فَجَرَى عَلَى قَدَرِهِ. لا يَكُونُ مِنْ عِبَادِهِ قَوْلٌ ولا عَمَلٌ إِلاَّ وَقَدْ قَضَاهُ وَسَبَقَ عِلْمُه بِهِ، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.
يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ فَيَخْذُلُهُ بِعَدْلِهِ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَيُوَفِّقُهُ بِفَضْلِهِ، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ بِتَيْسِيرِهِ إِلَى مَا سَبَقَ مِنْ عِلْمِهِ وَقَدَرِهِ مِنْ شَقِيٍّ أو سَعِيدٍ.
تَعَالَى اللهُ أَنْ يَكُونَ فِي مُلْكِهِ مَا لا يُرِيدُ، أو يَكُونَ لأَحَدٍ عَنْهُ غِنًى، أو يَكُونَ خَالِقٌ لِكُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ هُوَ، رَبُّ الْعِبَادِ وَرَبُّ أَعْمَالِهِمْ، وَالْمُقَدِّرُ لِحَرَكَاتِهِمْ وَآجَالِهِمْ.

هذا السياق الذي ساقه الإمام ابن أبي زيد القيرواني يتضمن هذه العقيدة التي تعد من أجل عقائد الدين، وهي عنوان يتميز به من أخلصهم الرب ﷻ من المؤمنين، وهي قضية القضاء والقدر التي جاء الإيمان بها علىٰ إثر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وقد جاء اقتران الركن السادس من أركان الإيمان في حديث جبريل الطويل الذي أجاب فيه النبي ﷺ جبريل عليه السلام لما سأله عن الإيمان، قال: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[(١)]، ونلاحظ أن النبي ﷺ ما عطف الإيمان بالقضاء والقدر علىٰ بقية أركان الإيمان الخمسة، ما قال: وبقدره وقضائه، وإنما أعاد هذا الفعل: وتؤمن بالقدر خيره وشره، فجعل ما عطف على الإيمان بالله من الإيمان بالملائكة والكتب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ح٥٠)، ومسلم في صحيحه (١/ح٨).

والرسل واليوم الآخر مرده إلىٰ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ثم لما جاء إلىٰ القضاء والقدر قال: وتؤمن بالقدر خيره وشره.

ولو فتشنا في نصوص الكتاب العزيز لوجدنا الإيمان بالقضاء والقدر جاء مفردًا ولم يرد له ذكر مع أركان الإيمان التي ذكرت في سورة البقرة، وذكرت في سورة النساء، فذكر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ذكر في سورتين علىٰ نسق واحد وهما البقرة والنساء؛ ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي النساء: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء: ١٣٦]، إذًا جاء هذا الاقتران بين هذه الأركان التي جاءت في سياق واحد إثرَ الإيمان بالله.

والقضاء والقدر جاء مفردًا في القرآن الكريم؛ ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١] فجاء القضاء والقدر مفردًا.

وقد نوه بعض أهل العلم ومنهم الإمام ابن قيم الجوزية في رسالته التي أرسلها إلىٰ أحد إخوانه إلىٰ الحكمة من وراء هذا الاقتران بين الأركان الخمسة وبين الانفراد بين ركن الإيمان السادس، أن تعلق الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، أنها أمور غيبية، فالمؤمن بحاجة إلىٰ أن يوقن بما غاب عنه من أوصاف الرب ﷻ التي خوطبنا بها وأمرنا أن نتعبد لله ﷻ بها، وغاب عنا ما يتعلق بالملائكة وبالكتب والرسل واليوم الآخر، فكلها أمور مغيبة تستدعي منا أن نوقن بها.

أما القضاء والقدر فهي أمور واقعة، يوقعها الرب ﷻ بعد المراتب

الأربعة التي سيأتي ذكرها علىٰ العبد فيشاهدها العبد، فتستدعي في هذا المقام الصبر، ولذلك كان متعلق الأركان الخمسة اليقين، ومتعلق الركن السادس الصبر، وقد قال أهل العلم: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، وقد جمعهما الرب ﷻ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، فهذا السياق والارتباط يبين الحكمة في انفراد القضاء والقدر عن بقية أركان الإيمان في سياقات القرآن الكريم.

هذا الإيمان الذي أشار إليه بقوله: **(وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حُلْوِهِ وَمُرِّهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ قَدْ قَدَّرَهُ اللهُ رَبُّنَا، وَمَقَادِيرُ الأُمُورِ بِيَدِهِ، وَمَصْدَرُهَا عَنْ قَضَائِهِ. عَلِمَ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلَ كَوْنِهِ، فَجَرَىٰ عَلَىٰ قَدَرِهِ)** إلىٰ آخر ما ذكره.

هذا فيه بيان أن المؤمن لا يبلغ مرتبة الإيمان بقضاء الله وقدره حتىٰ يحقق ويعتقد مراتب الإيمان بالقضاء والقدر وهي أربع مراتب:

المرتبة الأولىٰ: أن يعتقد علم الله ﷻ الأزلي بالموجودات والمعدومات، وهي أنه قد علم كل شيء علمًا أزليًّا، وهذا العلم منه يتناول أمرين، علمَه بالموجودات، وعلمَه بالمعدومات، أما علمه بالموجودات فهو يتنوع إلىٰ ثلاثة أنواع: علمه بما كان، وهو الماضي، وعلمه بما يكون، وهو الحاضر، وعلمه بما سيكون، وهو المستقبل.

وعلمه بالمعدومات، يعلم ﷻ الأمر المعدوم الذي ما كان ولن يكون، يعلم ما حال هذا المعدوم لو قدر أنه سيكون، كما قال ﷻ: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٨، ٢٩]، ومعلوم أن مرد أهل الآخرة

إلىٰ الدنيا معدوم، لن يكون هذا الأمر بحال من الأحوال، مع ذلك فإن الله ﷻ يعلم حال بعض أهل النار، وأنهم لو ردوا إلىٰ الدنيا ومُكِّنوا من العمل الصالح فيها: لعادوا لما نهوا عنه، عادوا لاقتراف السيئات والوقوع في المنكرات، وأعظم ذلك قولهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

لذلك قال أهل العلم: الرب ﷻ يعلم ما كان وما يكون وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، هذه المرتبة الأولىٰ، يجب أن نحققها إذا ما أردنا أن نؤمن بقضاء الله وقدره، وبعلمه الأزلي السابق، وهذا يبعث الطمأنينة في النفس، وهو أن الأمر الذي وقع عليك، وقع بعلم الله السابق، فيبعث العبد علىٰ الصبر، بل يبعثه علىٰ الرضا بدل أن يبعثه علىٰ التسخط علىٰ ما قدره الله عليه وقضاه.

المرتبة الثانية: اعتقاد أن الله كتب هذا العلم الأزلي في اللوح المحفوظ، كما أخرج مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ يرفعه إلىٰ النبي ﷺ: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه علىٰ الماء**»[(١)].

أن هذا الأمر قُدِّر علىٰ العبد فيما سبق في علم الله -تبارك وتعالىٰ- وبما كتب في اللوح المحفوظ يوم خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة. فجرىٰ في تلك الساعة ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة، فهذا يبعث العبد علىٰ انشراح الصدر، وقرة العين، وطمأنينة القلب، وصلاح البال، يعلم أن هذا الأمر قد قدره الله ﷻ عليه،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ح٢٦٥٣).

فبدل أن يُشغل نفسه بالتسخط علىٰ هذا المقدر المقضي، عليه أن يرضىٰ ويسلم ويستهدي بالله ﷻ ويتوكل عليه وينيب إليه.

والمرتبة الثالثة: هي مشيئة الله وإرادته، وهذه تسبق ما يُقَدَّرُ علىٰ العبد ويقضىٰ، فعلم الله سابق بما لا يحصيه إلا الله ﷻ، يعني ما قُدر علينا من اجتماعنا في هذا المجلس، أسأل الله أن يجعله مجلسًا مباركًا، هذا قدر علينا في علم الله السابق الأزلي ومكتوب في اللوح المحفوظ الذي لا ندري متىٰ قدر علينا علمًا وكتابةً، فهو في علم الله الأزلي الأولي الذي لا أول قبله، ومكتوب في اللوح المحفوظ ساعة خلق الله القلم وساعة جريانه بالكتابة في اللوح المحفوظ، لكن المشيئة سبقت ما أراده الرب ﷻ وقدره من الاستعداد لهذا الاجتماع، فكان بعد ذلك في اجتماعنا هذا حصول المرتبة الملاصقة، وهي الرابعة.

المرتبة الرابعة: وهو خلق هذا الفعل، فالاجتماع في هذا المجلس هو خلق هذا الفعل، وقد سبقته ثلاثة مراتب، مرتبة العلم ومرتبة الكتابة ومرتبة المشيئة، فكان بعد ذلك اجتماعنا، وهو تحقيق المرتبة الرابعة، وهو خلق هذا الأمر المقدر المقضي؛ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

هذا الأمر الذي علمه الله حين قال: (عَلِمَ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلَ كَوْنِهِ، فَجَرَىٰ عَلَىٰ قَدَرِهِ)، أي: وفق قدر الله له، كما علمه وكتبه وشاءه وخلقه الله، وقع هذا الأمر المقضي المقدر، وقع وفق علم الله تعالىٰ لم يبرح عن علم الله تعالىٰ وكتابته ومشيئته وخلقه قيد أنملة، بل وقع وفق هذه المراتب الأربعة.

ثم قال: (لاَ يَكُونُ مِنْ عِبَادِهِ قَوْلٌ ولا عَمَلٌ إلا وَقَدْ قَضَاهُ وَسَبَقَ عِلْمُه بِهِ).

إذًا هذا يشمل جميع الأفعال والأقوال والأعمال والأحوال، كلها جارية علىٰ هذا العلم، سكوتنا، تكلمنا، يقظتنا، منامنا، إقامتنا، ارتحالنا،

ورحيلنا، كل ذلك واقع علىٰ هذا التفصيل؛ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، اللطيف الذي يعلم ما دقَّ وما خفي من الأمور والتي خَبَرَها بعلمه ﷻ وهو عالم الغيب والشهادة، وهو علام الغيوب.

مما يتعلق بقضاء الله وقدره الذي كتبه الله في اللوح المحفوظ، أنه قبل خلقه ووقوعه غيبٌ لا يعلمه أحد، ولا يمكن لأحد لا لنبي مرسل ولا لملك مقرب أن يعلم شيئًا مما سبق به علم الله وما كتبه الله في اللوح المحفوظ، ولا سبيل إلىٰ معرفة شيء مما قدره الله وقضاه مما سبق به علمه وما كتبه في اللوح المحفوظ إلا بطريقين:

الطريق الأولىٰ: طريق الوحي، وهو أن يوحي الرب ﷻ إلىٰ النبي ﷺ إما في الكتاب العزيز أو السنة المطهرة علمُ هذا الأمر، يعني علمُ الساعة لا يعلم أحدٌ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل متىٰ تقوم، لكن عندنا من علم الساعة طرف يسير جدًّا، وهو: «**أن الساعة تقوم في يوم الجمعة**»[(١)].

إذًا هذا علم علمنا الله إياه، يعني لو قال أحدٌ: لا يمكن بحال من الأحوال أن تقع الساعة في يوم الأحد، لما كان هذا من التقول والتخرص ودعوىٰ الغيب؛ لأننا قد علمنا بحديث النبي ﷺ الصريح الصحيح أن الساعة تقوم في يوم الجمعة، لكن هذه الجمعة من أي قرن، من أي عام، من أي شهر، من أي جمع هذا الشهر؟ الله أعلم، فلو عيَّنَهَا أحدٌ لكان متقولًا علىٰ الله ومتخرصًا في تقوله.

---

(١) يشير إلىٰ حديث النبي ﷺ: «**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة**»، الحديث أخرجه أبو دواد في سننه (١/ح١٠٤٦)، وابن ماجه في سننه (٢/ح١٠٨٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي دواد (١/ح١٠٤٦).

الطريق الثانية: وقوع الشيء، إذا وقع الشيء عَلِمْنا أن هذا الأمر مما قدره الله وقضاه، فاجتماعنا في هذه المحاضرة نعلم أنه مكتوب في اللوح المحفوظ، فلو قال أحد: إن اجتماعنا هذا مكتوب في اللوح المحفوظ، لم يكن ذلك من التقول علىٰ الله؛ لأن هذا الأمر الذي وقع نجزم بأن كل ما وقع فهو قد سبق به علم الله الأزلي، وهو قد سطر في اللوح المحفوظ وقد شاءه الله وأراده وقد خلق الله وقوعه.

إذًا لا سبيل إلىٰ علم الغيب من غير هذين الطريقين؛ طريقِ الوحي، وطريقِ الوقوع.

قوله: (يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ فَيَخْذُلُهُ بِعَدْلِهِ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَيُوَفِّقُهُ بِفَضْلِهِ).

وهذا فيه دلالة علىٰ أن العباد جميعهم لا يخرج أحد منهم عن طريقين ولا يسلك أحد منهم غير سبيلين؛ إما أن يسلك سبيل الفضل، أو سبيل العدل، ربنا ﷻ يُسَيِّرُنا عبر طريقين، إما أن يسيرنا بمنه وكرمه في طريق فضله، وإما أن يسيرنا في طريق عدله، وليس هناك طريق ثالث.

أما الناس فيسيرون عبر ثلاثة طرق: طريق الفضل، وطريق العدل، وطريق الظلم، جمعها الله ﷻ في آية الشورىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، هذا طريق العدل، ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، هذا طريق الفضل، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورىٰ: ٤٠] هذا طريق الظلم، تعاملنا مع الناس إما أن يكون عدلًا أو فضلًا أو ظلمًا، من عمل لي سيئةً فرددت عليه هذه السيئة: هذا عدل، وهذا باب القصاص، النبي ﷺ أمر أن يحسن في حق القاتل الذي قتل رجلًا بغير حق، لكن إذا قدر أن هذا القاتل قتل المقتول قتلةً بشعةً: فإن هذا القاتل يقتل نظير هذه القتلة البَشِعة، كما أمر النبي ﷺ أن يُرَضَّ رأسُ اليهودي الذي رَضَّ جاريةً،

فجعل رأسها بين حجرين، فأمر النبيُّ ﷺ أن يُفعل به كما فَعَلَ بها[١]، إذًا هذا عدل.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، هذا الفضل؛ أن يُقتل لأحدنا قتيل فيعفو ويصفح، يقول: لا أريد الدية ولا أريد القصاص، أريد أن أعفو عنه لعل الله أن يعفو عني، هذه هي منزلة الفضل.

أما منزلة الظلم: أن يأتي إلىٰ هذا الإنسان الذي قتل قريبه قتلةً معتادةً فيأتي ويمثل بهذا القاتل بعد قتله، هذا ظلم، إذًا هذه أحوال الناس؛ يتعامل بعضهم مع بعض عبر هذه المراتب الثلاث: مرتبة العدل، ومرتبة الفضل، ومرتبة الظلم.

أما ربنا ﷻ فليس له في تعامله معنا إلا أن يعاملنا بفضله أو يعاملنا بعدله، لذلك قال النبي ﷺ في حديث أم المؤمنين أم عبد الله عائشة رضي الله عنها: «**من نوقش الحساب عُذب**»[٢]، هذا هو العدل أن يوقِفَ الربُّ ﷻ عبدَه علىٰ كل ما عمله وقاله، وأن يحاسبه علىٰ ذلك، وأن يقابل أعمالَه بنعم الله عليه، فمن نوقش الحساب عذب، عدلًا من الله؛ لأنه لن يستطيع العبد بحال من الأحوال أن تقوم أعماله كلها بإجزاء نعمة من نعم الله ﷻ، فلو قَدَّرَ الله عليه العذاب لعذبه وهو غير ظالم له، لكن إذا أراد الله لعبده فضلًا فلا يعرض الحساب عرضًا، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعاملنا بفضله.

قوله: **(فَكَلٌّ مُيَسَّرٌ بِتَيْسِيرِهِ إِلَىٰ مَا سَبَقَ مِنْ عِلْمِهِ وَقَدَرِهِ مِنْ شَقِيٍّ أو سَعِيدٍ)**.

---

(١) أخرجه أبو دواد في سننه (٤/ح٤٥٢٧)، والدارمي في سننه (٣/ح٢٤٠٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي دواد (١/ح٤٥٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ح٦٥٣٦).

يعني: كل الذي يجري الناس في فلكه إنما هو جريانٌ بتيسير الرب ﷻ وهم يجرون في ميدان القضاء والقدر، كل ميسر لما خلق له؛ ولذلك لما سأل الصحابة ﷺ رسولَ الله ﷺ فقالوا، يا رسول الله: أرأيت ما نعمله أهو أمر مستأنف، أم أمر قد قدر علينا وسبق به الكتاب؟ قال: «**بل أمر قد قُدِّرَ عليكم وسبق به الكتاب**»، فقالوا: وفيم العمل يا رسول الله؟ قال: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة**»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

قال الصحابة ﷺ: فما كنا أشد اجتهادًا في العمل منا اليوم[(١)]، وهذا هو الذي يفتح للعبد باب الأمل ليجتهد بعد ذلك في العمل، أما الذين خافوا وخسروا وظنوا بالله ظن السوء فإنهم يتكلون علىٰ الكتاب السابق، وإذا ما حاججك أحدٌ في قضاء الله وقدره، ودائمًا ما يحاججونك في قضاء الله وقدره المتعلق بالأمور الدينية، فحاجِجْهم أنت بقضاء الله وقدره المتعلق بالأمور الدنيوية، فإذا قال لك القائل: لماذا أصلي إذا كان الله قد كتب علي أنني من أهل الشقاء وأنني من أهل النار؟ قل له: لماذا تدرس ولماذا تعمل، ولماذا تتزوج؟ فيجد هذا الإنسان نفسُه تلزمه إلزامًا للأخذ بأسباب الأمور الدنيوية، أما الأمور الأخروية فتجد هذه النفس الأمارة بالسوء تحول بينه وبين الأخذ بالأسباب، فمن جادلك في شيء من قضاء الله وقدره: فجادله في كتابه إلىٰ أن تسأله عن سبب أخذه في الأسباب الدنيوية، فسيبهت ولا يجد

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ح١٣٦٢)، ومسلم في صحيحه (٨/ح٢٦٤٧).

جوابًا يجيبك به، بل يحار في مقاله؛ لأن هذا الأمر أمر قد ركب الله عليه العقولَ المستقيمة، وفطر عليه الفطر السليمة، أن تأخذ بالأسباب، وأنَّ من ترك الأسبابَ فإنه موصوف بما هو خلاف العقل الذي خلق عليه هذا الإنسان.

كثيرًا ما يرد السؤال: هل يجوز الاحتجاج بالقضاء والقدر أم لا يجوز؟ هل يجوز لي أن أقول: قدر الله وما شاء فعل؟ هذا الجواب تارةً يكون المجيب به ممدوحًا وتارةً يكون مقدوحًا، تارةً يكون مصيبًا وتارةً يكون معيبًا، متىٰ يكون أحدنا موافقًا للهدىٰ في قوله: «**قدر الله وما شاء الله فعل؟**»، ومتىٰ يكون واقعًا في الردىٰ؟

الاحتجاج بالقضاء والقدر لا يخلو من أمرين، إما أن يكون هذا المحتج قد احتج علىٰ مصيبة، وإما أن يكون قد احتج علىٰ معيبة، فمن كان في قوله: قدر الله وما شاء فعل، محتجًّا بهذا الجواب علىٰ مصيبة، فاحتجاجه صحيح، وإذا كان احتجاجه علىٰ معيبة: فاحتجاجه قبيح.

مثال ذلك: رجلان خرجا من بيتهما، وقدر الله عليهما أن يجتمعا في إشارة مرور، فأما أحدهما فوجد الإشارة قد أضاءت بضوئها الأخضر فسار في طريقه الذي فسح له، والآخر كانت الإشارة قد أضاءت بضوئها الأحمر فجاء مسرعًا وتخطاها فصدم هذا المتخطي للإشارة الحمراء المتخطي للإشارة الخضراء، فاقتادتهم أجهزة الأمن إلىٰ مخفر الشرطة، فقيل لهذا الذي قد تخطىٰ الإشارة الخضراء: ما سبب وقوع هذا الحادث؟ قال: قدر الله وما شاء فعل، وقيل لمن تخطىٰ الإشارة الحمراء: لماذا فعلت ذلك؟ قال: قدر الله وما شاء فعل، الأول: احتجاجه وقع علىٰ جهة الحق والصواب، والثاني: وقع احتجاجه علىٰ جهة الباطل؛ لأن الأول احتج علىٰ مصيبة

وقعت عليه، وقد أخذ بأسباب السلامة، والثاني وقعت منه علىٰ جهة المعيبة، ومعيب في هذا التصرف، فيكون قول أحدنا: قدر الله وما شاء فعل، من المواطن المشروعة إذا كان علىٰ جهة جوابه علىٰ أمر قد أصيب به، أما إذا كان علىٰ أمر قد وقع منه علىٰ جهة العيب، فلا يجوز له أن يقول ذلك.

يبقىٰ الأمر الذي يُسأل عنه ويعرفه جميعنا ويدركه ويعتقده أن أكل آدم من الشجرة عليه السلام هو أكل معيبة؛ لأن الله عز وجل قد نهاه عن الأكل من الشجرة فأكل منها وقد وصف الرب جل جلاله هذا الأكل أنه غواية؛ ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، فهو معيبة ولا شك، كيف جرىٰ من آدم الاحتجاج بقضاء الله وقدره علىٰ هذا الأكل؟ وذلك حين لقي موسىٰ عليه السلام آدم عليه السلام ليلة عرج بالنبي ﷺ إلىٰ السماء، فقال له موسىٰ عليه السلام: أنت آدم أبو البشر؟ قال: نعم، قال: أنت الذي خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكَتَه وأدخلك جنته؟ قال: نعم، قال: فلماذا خيبتنا ونفسك وأخرجتنا من الجنة؟ فقال له أدم عليه السلام: أنت موسىٰ بن عمران؟ قال: نعم، قال: أنت الذي كلمك الله؟ قال: نعم، قال: أنت الذي كتب الله لك التوراة بيده؟ قال: نعم، قال: ألم تجد في التوراة: وعصىٰ آدم ربه فغوىٰ، قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة؟ قال: بلىٰ، قال: فلماذا تلومني علىٰ أمر قد قدره الله علي؟! قال النبي ﷺ: «**فحجَّ آدمُ موسىٰ، فحج آدمُ موسىٰ**»[(١)]، يعني جعل النبي ﷺ النصرة لآدم علىٰ موسىٰ.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ح٩٢١٨) بهذا اللفظ، ورواه البخاري، ومسلم في صحيحهما مختصرًا.

كيف يجعل النبي ﷺ النصرة لآدم علىٰ موسىٰ، وآدم قد احتج بقضاء الله وقدره علىٰ معيبة؟

جواب ذلك: أن كل معيبة تنتقل بالتوبة إلىٰ مصيبة، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، وهذه الكلمات هي: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

فكل من وقع في معيبة ثم تاب منها فإنه يجوز له بعد حين أن يحتج بالقضاء والقدر عليها، لو قدر أن هذا الإنسان الذي مثلنا به قبل قليل والذي تجاوز الإشارة الحمراء وصدم السيارة التي تجاوزت الإشارة الخضراء، أنه بعد الحادث سأل أباه أن يشتري له سيارة، فقال: كيف أشتري لك سيارةً وأنت قد وقع منك هذا الأمر المشين المعيب؟! فمضت الأيام واستقام وتاب إلىٰ الله وأقلع عن مثل هذه الخطايا وندم علىٰ مثل هذه الرزايا، وعزم علىٰ عدم إيذاء البرايا، سأل أباه بعد ذلك أن يشتري له سيارةً، فقال له: كيف أشتري لك سيارةً وقد وقع منك كذا وكذا؟ قال: يا أبي، قدر الله وما شاء فعل، فيكون احتجاجه بعد التوبة النصوح احتجاجًا صحيحًا، وقولُه بعد ذلك قولًا مليحًا، وهذا فرقان ما بين الاحتجاج بالمصيبة والاحتجاج بالمعيبة.

قوله: (تَعَالَىٰ اللهُ أَنْ يَكُونَ فِي مُلْكِهِ مَا لا يُرِيدُ، أو يَكُونَ لأَحَدٍ عَنْهُ غِنًىٰ، أو يَكُونَ خَالِقٌ لِكُلِّ شَيْءٍ إلا هُوَ، رَبُّ الْعِبَادِ وَرَبُّ أَعْمَالِهِمْ، وَالْمُقَدِّرُ لِحَرَكَاتِهِمْ وَآجَالِهِمْ).

هذه الجملة تقدم الحديث عنها، أن الله ﷻ هو المقدر لمقادير أعمال العباد، لكن يحسن التنبيه علىٰ أمر، وهو ما يتعلق بأن الرب ﷻ له المشيئة والإرادة، وهو مع ذلك قد أعطىٰ عبده مشيئة وإرادة؛ قال تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

فالرب -تبارك وتعالىٰ- قد أعطىٰ العبد مشيئةً، إن شاء أن يكون من الأبرار وإن شاء أن يكون من الفجار؛ قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

فالرب ﷻ بين لهم النجدين وهداهم السبيلين، فاختاروا العمىٰ علىٰ الهدىٰ، واختاروا الردىٰ علىٰ الهدىٰ الذي استحبه الله ﷻ لهم، وفي ذلك الرد علىٰ من يزعم أن هذا العبد مسير، بل مخير من وجه ومسير من وجه، مخير بأن أعطاه الرب ﷻ اختيار السبيل الذي يريد أن يسلكه، إما أن يكون من الأبرار أو من الفجار؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢، ٣].

الْبَاعِثُ الرُّسُلَ إِلَيْهِمْ لإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ.

هذه الجملة يُفتتح بها باب الإيمان بالرسل عليهم السلام، وهو أحد أركان الإيمان، وبيان رحمة الله بنا ومنته علينا أن بعث إلينا الرسل عليهم السلام؛ ليقيموا حجة الله علينا، فهم من أعظم نعم الله، والحاجةُ إليهم أعظم من حاجة الجسد إلىٰ الطعام والشراب والهواء؛ لأن غاية مَن فَقَدَ الطعامَ والشرابَ والهواء أن يموت، وغايةَ من فقد الوحي الذي أوحاه الله ﷻ وجعله روحًا يهدي به من يشاء من عباده لأن يهلك في الدارين، وأن يكون مثله كمن يمشي في الظلمات، لا يستطيع أن يهتدي في مشيه إلىٰ سواء السبيل.

وهذه الحجة التي جعلها الله ﷻ علىٰ عباده هي أحد الأصول التي يجب علينا أن نؤمن بها.

ومن دلائل الإيمان بالرسل أن نؤمن بإيمانين، أن نؤمن بالملائكة الذين جعلهم الله ﷻ رسلًا بينه وبين الأنبياء، والمختص بهذه الرسالة هو جبريل عليه السلام، هو الواسطة بين الرب -تبارك وتعالىٰ- وبين رسل الله تعالىٰ، فهو الذي ينزل بالوحي من عند الله تعالىٰ.

ومن لوازم الإيمان بالرسل أن نؤمن بالكتب التي أنزلها الله ﷻ علىٰ أنبيائه وعلىٰ رسله -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-

وهذا هو القدر الواجب من الإيمان، من لقي الله ﷻ بهذا القدر الواجب فقد حقق الإيمان الذي طلب منه، ووراء ذلك ما وراءه من الإيمان المفصل، من ذلك أن نؤمن بمن سمَّاهم الرب -تبارك وتعالىٰ- في وحيه من الأنبياء والمرسلين، فثمة أنبياءُ سماهم في القرآن الكريم، وعَدَدُ من سمَّاهم في القرآن الكريم خمسةٌ وعشرون نبيًّا ورسولًا، ثمانية عشر منهم جاءوا في سياق

واحد في سورة الأنعام قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٦].

وسبعةٌ تفرق ذكرهم في القرآن الكريم، أول نبي وآخر نبي، آدم عليه السلام، ومحمد ﷺ وبهم تتمة العدد إلىٰ عشرين، وخمسة وهم من تبقىٰ أولهم إدريس وثلاثة أنبياء يأتي ذكرهم نسقًا في قصص القرآن الكريم كقصص الأعراف وهود والشعراء، وهم أنبياء الله هود وصالح وشعيب، وأخرهم ذو الكفل، هؤلاء الذين سماهم الرب -تبارك وتعالىٰ- في القرآن الكريم.

وباقي الأنبياء جاء ذكرهم في القرآن الكريم دون ذكر أسمائهم، وجاء في السنة المطهرة، مع أن ذكرهم في القرآن الكريم جاء مبهمًا.

ويوشع بن نون الذي جاء ذكره في قصة موسىٰ عليه السلام مع فتاه، الذي أمسك الله ﷻ له الشمس عن الغروب حتىٰ فتح الله له بيت المقدس، هذا النبي جاء ذكره في القرآن الكريم قبل نبوته، ثم أكرمه الله بنبوته، وموسىٰ عليه السلام له فضلٌ علىٰ أخيه هارون وله فضل علىٰ فتاه، وليس المقصود بالفتىٰ هنا الرقيق وإنما هو حُرٌّ، ولكنه قد شرف بصحبة موسىٰ عليه السلام والرحلة معه.

وثمة أمر نختم به هذه المسألة، وهو مراتب النبوة، هذا الديوان العظيم وهو ديوان النبوة، مراتبه خمسة، احفظوها وعوها:

المرتبة الأولىٰ: مرتبة النبوة، وهي أدنىٰ المراتب.

المرتبة الثانية: وهي أعلىٰ منها، وهو مرتبة الرسالة، والفرق بينهما: أن

الرسول -كما تدل عليه بعض دلائل النصوص- من بُعث إلىٰ قوم كافرين، والنبي من بُعث إلىٰ قوم مسلمين، والرسول من أوحي إليه بشرع جديد والنبي من جاء بشرع من قبله، وفي ظل ذلك أن الرسول قد أنزل إليه كتاب، والنبي قد تعبد هو وقومه بكتاب من قبله من الرسل، إذًا أدنىٰ مراتب هذا الديوان مرتبة النبوة وأعلىٰ منها مرتبة الرسالة، والأنبياء لا يعلم عددهم إلا الله، وقد انتخب منهم الرسل؛ قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ففضلهم الله ﷻ علىٰ الأنبياء. ثم فَضَّلَ الرسل بعضهم علىٰ بعض، فانتخب من الرسل.

المرتبة الثالثة: وهي مرتبة أولو العزم من الرسل، الذين جاء ذكرهم في آيتين، في الأحزاب والشورىٰ، وهم نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-.

المرتبة الرابعة: وهم من انتخبهم الرب ﷻ من أولي العزم من الرسل وهي مرتبة الخُلة، والتي انتخب الله ﷻ لها الخليلين: إبراهيم ومحمدًا -صلىٰ الله عليهما وسلم-.

المرتبة الخامسة: وهي مرتبة الختم التي اختص بها نبينا ﷺ، والتي مَثَّلَها ببناء جعل من يَمُرُّ عليه يعجب من هذا البناء، فيقول: ما أجمل هذا البناء لولا موضع لبنة، فكان النبي ﷺ هذه اللبنة من هذا البناء والصرح العظيم[1]، فهذه مراتب هذه الديوان العظيم الذي هو فضل الله ﷻ ورحمته واختصاصه لمن شاء من عباده.

---

(١) يشير إلىٰ حديث: «**إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَىٰ بَيْتًا**»، الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ح٣٥٣٥)، ومسلم في صحيحه (٧/ح٢٢٨٦).

ثُمَّ خَتَمَ الرِّسَالَةَ وَالنِّذَارَةَ وَالنُّبُوَّةَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ ﷺ فَجَعَلَهُ آخِرَ الْمُرْسَلِينَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْحَكِيمَ، وَشَرَحَ بِهِ دِينَهُ الْقَوِيمَ، وَهَدَى بِهِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.

هذه الجملة فيها الحديث المفصل عمَّنْ جمع الله ﷻ له بين المراتب الخمس، فهو نبي رسول، وقد ناداه الله ﷻ في القرآن الكريم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ في ثلاث عشرة آية، وهو كذلك رسول، ناداه الله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ في آيتين في سورة المائدة، وكذلك ناداه الرب ﷻ بنداءين: يا أيها المزمل، ويا أيها المدثر، وليس لها في صيغ النداء موطن خامس، إما أن يكون النبي ﷺ خوطب بـ(أيها النبي، أو يا أيها الرسول، أو يا أيها المزمل، أو يا أيها المدثر)، ولم يخاطب في آية واحدة باسمه (يا محمد)، وجميع الأنبياء خوطبوا بأسمائهم؛ يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا موسىٰ، يا عيسىٰ، إلا النبي ﷺ إجلالًا لمنزلته ورفعًا لذكره، خوطب بأوصافه ﷺ وإنما ذكر اسمه في أربعة مواطن ذكر إخبار لا ذكر نداء، في آل عمران، والأحزاب، ومحمد، والفتح؛ وهذا كله من رفع الرب -تبارك وتعالىٰ- له ذكرًا.

قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فأعظم منة أنعم الله بها علىٰ البشرية؛ وأكسب نعمة علىٰ البرية: أن بعث الله ﷻ نبيه محمدًا عليه أفضل صلاة وأزكىٰ تحية.

وكل أمة من الأمم بعد بعثة النبي ﷺ فإنها من أمة النبي ﷺ فليس بعد

بعثة النبي ﷺ لا يهودية ولا نصرانية؛ لعموم قول النبي ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[(١)]، فجميع الأمم بعد بعثة النبي ﷺ كلها قد أصبحت من أمة النبي ﷺ.

وأمته تنقسم إلىٰ قسمين؛ **أمة الدعوة**: وهم جميع من علىٰ وجه الأرض الآن، بل منذ ما يزيد علىٰ ألف وأربعمائة سنة، ليس ثمة أمة إلا أمة النبي ﷺ، كلهم قد دخلوا في أمته، أمة الدعوة.

وأمة الإجابة: وهم من هداه الله للإسلام، انتقل من أمة الدعوة إلىٰ أمة الإجابة، فأمته تنقسم إلىٰ قسمين: أمة دعوة، وأمة إجابة.

والرب -تبارك وتعالىٰ- قد جعله خاتم الأنبياء وإمام المرسلين، وجعله قائمًا بالدعوة من طريقين؛ من طريق البشارة، وهي الترغيب، ومن طريق النذارة، وهي الترهيب، فهو إما أن يدعو بالوعد أو يدعو بالوعيد، وجعله الله ﷻ داعيًا إلىٰ الله بإذنه، لا يتكلم إلا بالوحي من عند الله، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]، وجعله سراجًا منيرًا أضاء به الظلماء، وجُعل ﷺ هاديًا إلىٰ طريق الله المستقيم، وأنزل عليه كتابه الحكيم، وهو القرآن الكريم الذي ما فرط الله ﷻ فيه من شيء، فجاء مشتملًا علىٰ خيري الدنيا والآخرة، وجاء ميسرًا للتلاوة، وللحفظ، وللفهم، وللعمل، وللتحكيم، وهو صالح لكل إنسان، وزمان، ومكان، فهذا كتابه الحكيم الذي شرح به دينه القويم، الشرح المجمل، وجاء تفاصيل ذلك في سنة النبي ﷺ أمر بالصلاة وجاءت تفاصيلها في السنة، أمر بالزكاة وجاءت

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ح١٥٣).

تفاصيلها في السنة، أمر بالصيام وجاءت تفاصيله في السنة، أمر بالحج وجاءت تفاصيله في السنة، وهذا مصداقًا لقول النبي ﷺ: «**ألا وإني قد أوتيت القرآن ومثله معه**»[(١)]، وهي السنة المطهرة، فبهما يهدىٰ عباد الله إلىٰ الصراط المستقيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه سواء كان كتاب الرب ﷻ أو سنة النبي ﷺ.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧/ح١٧٤٤٧)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ح١٦٣).

وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ يَمُوتُ، كَمَا بَدَأَهُمْ يَعُودُونَ.

هذا مقام من كتاب ابن أبي زيد القيرواني ﵀ عن الإيمان باليوم الآخر، هذا اليوم هو أحد مقاصد النبوات الثلاثة، جميع النبوات التي أوحاها الله ﷻ إلىٰ من سبق ذكرهم وهم الأنبياء، لا تخرج مقاصد الأنبياء عن تقرير ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: تقرير التوحيد.

والمقصد الثاني: تقرير النبوات.

والمقصد الثالث: تقرير المعاد.

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه «هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ» المقاصد التي اتفقت عليها جميع الشرائع السماوية، كلها جاءت لتقرير هذه المقاصد الثلاثة: تقرير التوحيد، والنبوات، والمعاد.

وهذه المقاصد الثلاث قد غلب ذكرها وتقريرها علىٰ السور المكية، فلا تكاد توجد سورة مكية إلا وقد غلب عليها ذكر مقصد من المقاصد، تارةً تتوجه السورة إلىٰ ذكر مقصد بعينه، كسورة الإخلاص التي أخلصت في مقصد التوحيد، وتارةً تأتي السورة في تقرير مقصد المعاد كسورة التغابن، وتارةً تأتي السورة في تقرير النبوات كسورة هود، وتارةً تشتمل السورة علىٰ هذه المقاصد الثلاثة.

وحديثنا هنا عن المقصد الثالث وهو: المعاد، فقال: «**وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ يَمُوتُ، كَمَا بَدَأَهُمْ يَعُودُونَ**».

انظروا إلىٰ جلالة هذا الاعتقاد الذي تُقْتَبَس جملُه من سور القرآن الكريم، فشتان ما بين هذا المعتقد الذي ينضح بآيات الذكر الحكيم، والمعتقدات التي تنضح بالفكر الذي يغلب عليه الاعوجاج والخروج عن صراط الله المستقيم.

فذكر أن الساعة آتية لا ريب فيها، والساعة هي أحد مفاتيح الغيب الخمس التي اختص الله بعلمها، والتي ختم بذكرها سورة لقمان: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]، هذه مفاتيح الغيب الخمس، وأولها هذه الساعة، لكن لا يعلم أحد متىٰ تفجأ الخلق ومتىٰ تداهمهم، لكن كما مر معنا أنها تقوم في يوم الجمعة.

والساعة تطلق ويراد بها الموت، وتارةً تطلق ويراد بها البعث، كما في قول النبي ﷺ: «**لا تقوم الساعة إلا علىٰ شرار الخلق**»[(١)]، فهم حين النفخ في الصور يموتون، فأطلق لفظ الساعة علىٰ موتهم ساعة النفخ في الصور، وتارة تطلق الساعة ويراد بها البعث؛ كما قال الرب ﷻ عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [غافر: ٤٦]، أي ساعة البعث؛ ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وقول الإمام ابن أبي زيد القيرواني: «**وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا**».

هذا اشتقاق من قول الرب ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩]، وهذا فيه الدلالة علىٰ تقرير هذا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٦/ح١٩٢٤).

الاعتقاد الذي أمر الرب ﷻ نبيه ﷺ أن يقسم في ثلاث آيات على وقوع البعث بعد الموت، منها قول الرب ﷻ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧]، فأراد الرب ﷻ أن يقسم على هذا البعث.

وقد تنوعت دلائل البعث في القرآن الكريم، كلها لإيقاظ القلوب من غفلتها وتنبيهها من ثباتها، فتارةً يقرر الرب ﷻ أمر البعث بتذكير الإنسان بخلقه أول مرة؛ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]، ومعلوم عند جميع العقلاء مؤمنهم وكافرهم أن الإعادة أهون من الابتداء وأن من ابتدأ شيئًا قادر على أن يعيده، كلُّنا يدرك بالضرورة أن من صنع سيارةً فهو قادر على إصلاحها، لكن هل كل من استطاع أن يصلح السيارة بمقدوره أن يصنعها؟ معلوم أنه ليس بمقدوره أن يصنعها؛ لأن الإعادة أهون من الابتداء، فهو قادر على أن يعيدها إلى وضعها الطبيعي لكن ليس بمقدوره أن يبتدئ صنعها من جديد، فهذا خطاب عقلي يخاطب الرب ﷻ به المنكرين للبعث.

وخطاب عقلي آخر وهو: أن من أقر بأن الله هو الذي خلق السماوات والأرض، يقال له: من خلق السماوات والأرض أليس بمقدوره أن يَخلق هذا الإنسان الضعيف؟ بلى بمقدوره، كما قال الرب ﷻ: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

وخطاب عقلي ثالث، وهو أن الإنسان قد خلق من تراب، وهذه الأرض التي خلق منها الإنسان يمر عليها الرجل وقد اضمحل ما عليها واصفرت وبادت، فيضرب الرب ﷻ بها المثل على إحياء الموتى، قال ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ

أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١].

وثمة أمور جاء ذكرها في القرآن الكريم، من ذلك أن الله ﷻ حاشاه أن يخلق الخلق سُدىٰ أو يتركهم هملًا، لا بد أن يردهم إلىٰ علمه، فهو ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤]، وأمور عدة كلها تقتضي التقرير العقلي مع التقرير النقلي إمكانيةَ البعث بعد النشور بعد ترك هذه الأرض، وأن الإنسان بعد تحلله يركبه الرب ﷻ، ويبلىٰ من ابن آدم كلُّ شيء إلا عجب الذنب، وهو آخر السلسلة التي في ظهر الإنسان، آخر فقرات العمود الفقري، هي التي تبقىٰ ويركب منها الإنسان، فيرجع الإنسان بهيئته التي مات عليها، الرجل الذي مات في حجة الوداع قال النبي ﷺ: «**غسلوه وكفنوه ولا تخبئوا وجهه فإنه يبعث يوم القيامة ملبيًا**»[(١)]، يُبعث علىٰ ما مات عليه، مات وهو يلبي فيبعث وهو يلبي.

وجاء في الحديث أن المقتول يبعث وهو يحمل رأسه، والشهيد يبعث ودمه ينبعث، اللون لون دم والريح ريح مسك، فيبعث علىٰ هيئته[(٢)]، وهذه قدرة الله ﷻ أن يعيد هذه الأجساد بلحمها وشحمها وعظمها كما كانت، بل أبلغ من ذلك أن الله ﷻ يركب من هذا الإنسان القطعة التي أزيلت بالختان، يحشر الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غرلًا، حفاة غير منتعلين، عراةً غير

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ح١٢٦٥)، ومسلم في صحيحه (٤/ح١٢٠٦).

(٢) أسأل الله تعالىٰ بأسمائه الحسنى وصفاته العلىٰ أن يتغمد الدكتور وليدًا العلي بواسع رحمته، وأن يتقبل منه هذا الجهد المبارك، وأن يتقبله شهيدًا عنده.

مكسويين، غرلًا غير مختونين، أين هذه القطعة التي أزيلت وقطعت من رأس الذكر؟ يركبها الله ﷻ ويبعث الإنسان عليها، وهذه الأدلة غاية ما يكون في تقرير قدرته ﷻ علىٰ هذا البعث وعلىٰ هذا النشور، وهذا كله من كمال عدل الله ﷻ لتلقىٰ هذه الأجساد التي عصت الله ﷻ العذاب؛ ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

فأول ما يمس النار هي الجلود التي باشرت هذه المعاصي والذنوب وتسترت علىٰ هذه الخطايا والعيوب.

وهذه المسألة التي قررها الإمام ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله تليها مسألة جليلة القدر، وهو ما يكون في عرصات القيامة، كما كان العبد في الدنيا يسير بين عدل الله وفضله، كذلك هو يوم القيامة يسير بين عدل الله وفضله، وهذه أوان تقريره.

وَأَنَّ اللهَ ﷻ ضَاعَفَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَسَنَاتِ، وَصَفَحَ لَهُمْ بِالتَّوْبَةِ عَنْ كَبَائِرِ السَّيِّئَاتِ، وَغَفَرَ لَهُمُ الصَّغَائِرَ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ، وَجَعَلَ مَنْ لَمْ يَتُبْ مِنَ الْكَبَائِرِ صَائِرًا إِلَى مَشِيئَتِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

هذه الجملة التي ذكرها الإمام ابن أبي زيد القيرواني رَحِمَهُ اللَّهُ فيها تقرير أن الله ﷻ متفضل علىٰ عباده بالحسنات مع عدله فيهم بالسيئات، فأما الحسنات التي يكتسبها العبد يكتسبها بفضل الله ﷻ، فإن من تفضل علىٰ العبد أولًا هو الذي يتفضل عليه آخرًا؛ لأنه ﷻ الأول الآخر، ومن معاني أوليته وآخريته هو المتفضل علىٰ عباده أولًا والمتفضل علىٰ عباده آخرًا، فتفضل علىٰ عباده أولًا بأن هداهم لفعل الحسنات، وتفضل عليهم آخرًا بأن ضاعف لهم أجور الحسنات، الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، ويضاعف الله لمن يشاء، كل ذلك بحسب ما يقترن بهذه الحسنة من الأمور التي تبعث علىٰ المضاعفة، تارةً ببركة الزمان، تارةً ببركة المكان، تارةً ببركة الإنسان، فتأتي المضاعفة لهذه الحسنة بحسب ما احتَفَّ بها واقترن.

والرب -تبارك وتعالىٰ- يضاعف لعباده الحسنات، الحسنة بعشرة أمثالها؛ كما قال الرب ﷻ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]؛ لأنه ليس وراء العدل إلا الظلم، الفضل وراءه العدل، والعدل وراءه الظلم، والرب ﷻ منزه عن الظلم؛ «**يا عبادي، إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**»[(١)]؛ لذلك قال أهل العلم في نظير هذه المسألة: العبد يستثني

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ح٢٥٧٧).

في الإيمان يقول: أنا مؤمن إن شاء الله؛ لأن وراء الإيمان الإسلام، لا يزكي نفسه، فلعله لم يرتق إلىٰ درجة الإيمان، ما زال يحوم حول حمىٰ الإسلام، لكن لا يجوز لأحد أن يقول: أنا مسلم إن شاء الله؛ لأنه ليس وراء الإسلام إلا الكفر، فلا يجوز للإنسان الاستثناء في الإسلام بل يقول أنا مسلم ويجزم بذلك، ولا يجوز أن يقول إن شاء الله، كما جاءت الروايات عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قوله: (وَصَفَحَ لَهُمْ بِالتَّوْبَةِ عَنْ كَبَائِرِ السَّيِّئَاتِ، وَغَفَرَ لَهُمُ الصَّغَائِرَ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ).

بعد ذكر الحسنات ذَكَرَ السيئات، وَبَيَّنَ أن السيئات تنقسم إلىٰ قسمين؛ إلىٰ كبائر وإلىٰ صغائر، وإذا عرف المؤمنُ الكبائر: عرف أن ما سواها من الصغائر، الكبائر حدَّها العلماءُ بحدَّين: ما فيها حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، ثم فرعوا علىٰ وعيد الآخرة أربعة أمور، قالوا: ما جاء فيه ذكرُ لعنة أو غضب أو دخول نار أو حبوط عمل، فرجع حد الكبيرة إلىٰ قيود خمسة، ما فيه حدٌّ في الدنيا، أو توعد بالآخرة بلعنة أو غضب أو حبوط عمل أو دخول نار، فإذا ما وجدت قيدًا من هذه القيود الخمسة قد اقترن بذنب من الذنوب أو جاء ذكره في عيب من العيوب: فاعلم أن ذلك من كبائر السيئات، وما بعد ذلك فإنه من الصغائر، مع التنبه والتنويه علىٰ أمر يجدر لكل واحد منا أن يتنبه له، وهو ما جاء في أثر ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: (لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار)[1]، وذلك الذي حدا بالعلماء أن

(١) ضعف ابن رجب رفعه في جامع العلوم والحكم (١/ح٤٤٩)، والسخاوي في المقاصد الحسنة (١/ح١٣٠٨)، والعجلوني في كشف الخفاء (٢/ح٣٠٧١)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١٠/ح٤٨١٠)، وأورد السيوطي في الجامع الصغير شاهدًا له من =

يجعلوا من جملة الكبائر: الإصرار علىٰ الصغائر، فكل صغيرة أصرَّ عليها المذنبُ فإنها تنتقل من ديوان الصغائر إلىٰ سجل الكبائر، لذلك المقصود بالصغائر التي يلم بها العبد ثم يتوب، ثم يلم بذنب آخر ثم يتوب، أما من أصر علىٰ صغيرة من الصغائر: فإن هذا الإصرار علىٰ الصغائر يجعلها في جملة الكبائر.

وذكر ما تكفر به الكبائر، فالكبائر لا تكفر إلا بأمر واحد هو التوبة النصوح، لا سبيل لمن ابتلي بكبيرة من الكبائر إلا أن يتوب إلىٰ علام الغيوب، وأن يقلع ويندم عن هذه الذنوب. فالسبيل إلىٰ تكفير الكبائر هو التوبة.

والكبائر علىٰ قسمين: **أحدهما**: أن تكون الكبيرة بين العبد وبين الله، كمن ابتلي بشرب الخمر، هذا ذنبه بينه وبين الله، هذا الذنب العظيم يورد الربُّ أصحابَه طينةَ الخبال، وهي سقيا عصارة عرق أهل النار في جهنم - عافانا الله وإياكم-.

والتوبة النصوح لا بد فيها من اجتماع شروط ثلاثة:

الأول: الإقلاع عن الذنب.

والثاني: الندم علىٰ الذنب.

والثالث: العزم علىٰ عدم العودة إلىٰ الذنب.

هذه الشروط متىٰ ما اجتمعت كانت هذه التوبة توبةً نصوحًا، ومتىٰ اختل

= حديث عائشة: «**ما كبيرة بكبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة بصغيرة مع الإصرار**»، (١/ ح٥١٢٧)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، وفي السلسلة الضعيفة، وردَّ جميع طرقه وحكم عليها بالضعف، وخلص إلىٰ أن الحديث لا يصح مرفوعًا ولا موقوفًا. والله أعلم.

منها شرط واحد رُدَّت التوبة؛ لأنها دعوة ردت علىٰ صاحبها.

الثاني: أن يكون الذنب من كبائر الذنوب بين العبد وبين الخلق. وفي هذا القسم يضاف إلىٰ هذه الثلاثة، **الشرط الرابع**: وهو أن يرد المظالم إلىٰ أهلها، السرقة من كبائر الذنوب، لا بد له من الندم، لا بد له من الإقلاع، لا بد له من العزم، لا بد له أن يرجع المال إلىٰ صاحبه، المغتاب لا بد له من الإقلاع، لا بد له من الندم، لا بد له من العزم، لا بد له من التحلل ممن اغتابه.

والذي قرره الإمام ابن قيم الجوزية في توبة المغتاب، أن توبته في التحلل من صاحبه تكون بأمرين، تكون بكثرة الدعاء له بظهر الغيب، وبكثرة الثناء عليه في المجلس الذي كان يغتابه فيه، ولا يشترط أن يأتيه وأن يقول له: قد اغتبتك فحللني؛ لأن النفس قد جبلت علىٰ وصفين، الظلم والجهل؛ قال تعالىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، أين نفس العالم الذي إذا جاءه المتحلل من غيبته قال له: اذهب قد عفوت عنك، أين الذي يبلغ رتبة يوسف؛ قال تعالىٰ: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

لذلك يخاف علىٰ هذا المغتاب وهو الذي اغتيب أن لا يقبل توبة من اغتابه، فتحصل بينهم الشحناء، والشرع يتشوف إلىٰ المحبة والإخاء؛ قال تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]، فمحال مع تشوف الشارع الحكيم لعقد سواعد الإخاء بين المؤمنين أن يأتي إلىٰ سبب تتفصل معه عرىٰ هذه المودة؛ لأن من حُدِّث بأنه قد اغتيب في مجلس ليته يرضىٰ ويقول قد عفوت عنك، بل الغالب أنه سيقول له: ماذا قلت؟ ومن كان حاضرًا؟ وماذا قالوا؟ فيبدأ ويتتبع دقائق الأمور حتىٰ يمتلئ قلبه بالحقد والحسد والغل، فأنىٰ له ولو ادعىٰ أنه عفا

عن أخيه بسلامة قلبه بعد ذلك، والشرع إنما يحرص علىٰ سلامة القلوب وعلىٰ تنقيتها من الذنوب والعيوب، إذًا هذا ما يتعلق بكفارة الكبائر.

أما كفارة الصغائر: فالصغائر تكفر بأمرين، بالحسنات؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، والأمر الثاني: باجتناب الكبائر؛ قال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، إذًا هذا ما يحصل به تكفير السيئات من الكبائر والصغائر.

ثم ختم المسألة بقوله: (وَجَعَلَ مَنْ لَمْ يَتُبْ مِنَ الْكَبَائِرِ صَائِرًا إِلَىٰ مَشِيئَتِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦]).

إذًا لو قدر أن من ابتلي بشيء من الذنوب وتستر علىٰ شيء من العيوب، وتوفاه الله ﷻ من غير توبة، ما مصيره؟ اعتقاد أهل السنة والجماعة الذي باينوا به معتقدَ أهل البدعة والشناعة أن مرده إلىٰ الله تعالىٰ، فالذي عامله في الدنيا بفضله أو عدله، هو الذي يعامله في الآخر بفضله أو عدله، فإن شاء الله ﷻ عفا عنه وأدخله الجنة بفضله، وإن شاء عامله بعدله فأدخله الجنة بعدله، مثال من عامله الله ﷻ بفضله: ما جاء في الصحيح من قصة الرجلين من بني إسرائيل وكانا متآخيين، وكان أحدهما مجتهدًا في العبادة والآخر مسرفًا علىٰ نفسه بالمعصية، فكان الذي قد اجتهد في العبادة كلما لقيه علىٰ ذنب قال له: أقصر، أي اترك هذا الذنب ودعه، حتىٰ لقيه علىٰ ذنب عظيم ذات يوم فقال له: اقصر، قال له: أَبُعثت علي رقيبًا أم جعلت علي حسيبًا؟ ما رضي أن ينكر عليه هذا الإنكار، فغضب هذا الرجل، أول مرة غضب لله حين قال: أقصر؛ كان غضبه لله، لكن لما قال له: أبعثت علي رقيبًا أم جعلت علي حسيبًا، كان غضبه لنفسه، فقال: والله لا يغفر الله لك

أو لا يدخلك الله الجنة، وهذا فيه تنبيه وتنويه علىٰ أن الواحد منا إذا رُدَّتْ عليه دعوتُه لا يرد الدعوة مرةً ثانيةً؛ لأن دعوته ستكون في الثانية انتصارًا لنفسه إلا من رحم الله ﷻ.

ومصداق ذلك لما جاء النبي ﷺ فوجد امرأةً منطرحةً علىٰ قبر وليد لها، فقال: «**يا أمة الله، اتقي الله واصبري**»[(١)]، قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، فارتحل عنها النبي ﷺ ولم يردَّ عليها الدعوة، فهذه من خصائص دعوة النبي ﷺ التي ينبغي لنا أن نأخذ بها، حتىٰ لا نفسد نوايانا في الانتصار للنفس، فهي تقول كما يقول ذلك الرجل: والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الجنة، فقال الله: من الذي يتألَّىٰ عليّ ألا أغفر لفلان؟ فجمعهما الله ﷻ بين يديه، فقال: ما الذي حملك علىٰ ما قلت؟ فأمر ملائكته فأخذوه إلىٰ النار، وقال للآخر: اذهب فادخل الجنة بفضلي[(٢)].

إذًا هذا وافىٰ الله ﷻ علىٰ ذنب فأدخله الله الجنة بفضله، ومن وافىٰ الله ﷻ علىٰ ذنب فلا بد له من تنقية ذنوبه بآخر المنقيات وهي النار، فإن المنقيات إما أن تكون في الدنيا؛ كمنقيات المصائب، منقيات الحوادث، منقيات الكوارث، منقيات الأمراض، الأوجاع، «**ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا همٍّ، ولا حزنٍ، ولا أذىً، ولا غمٍّ حتىٰ الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها خطاياه**»[(٣)]، إذًا هذه منقيات الدنيا، وهناك منقيات في القبر كضمة القبر، ما يكون من العذاب في القبر ينقِّي الإنسان، وهناك

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ح١٢٥٢)، ومسلم في صحيحه (٣/ح٩٢٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ح٢٦٢١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح٥٦٤١)، ومسلم في صحيحه (ح٢٥٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ممن ابتلي بالذنوب الكثيرة والعيوب الوفيرة التي لا بد أن يُنَقَّىٰ منها قبل أن يدخل الجنة؛ لأنه لا يدخل الجنة إلا طيب؛ لأن الجنة دار السلام، لا يدخلها إلا من سلم من جميع آثار الذنوب ومن علامات العيوب، لا بد أن ينقىٰ ثم بعد ذلك يدخل الجنة بعد أن يطيب بهذه النار.

وَمَنْ عَاقَبَهُ اللهُ بِنَارِهِ أَخْرَجَهُ مِنْهَا بِإِيمَانِهِ، فَأَدْخَلَهُ بِهِ جَنَّتَهُ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾، وَيُخْرِجُ مِنْهَا بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ شَفَعَ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ.

هذه الجملة فيها تقرير ما هو ملحق بالمسألة الماضية، وهي أن من وافىٰ الله ﷻ مصرًّا علىٰ الكبائر، مقترفًا لها غير تائب؛ فإن مآله إلىٰ مشيئة الله تعالىٰ؛ إما أن يدخل الجنة بفضل الله تعالىٰ، وإما أن يدخل النار بعدل الله تعالىٰ؛ فناسب أن يذكر هنا بأن عامله الرب ﷻ بعدله فإنه يقيم في النار إقامة تطهير، تطهير لذنبه حتىٰ إذا ما تطهر من ذنوبه ونقي من عيوبه، فإنه حينئذ يصبح طيبًا يناسب أن يكون من أهل الجنة، هذه الجنة التي هي دار الطيبين، بجوار الطيب ﷻ فحينئذ يستحق قول الملائكة: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، فيخرج من النار بإيمانه ولو كان عنده مثقال حبة خردل من إيمان؛ فإن الإيمان ينفع صاحبه، ويكون هذا الإيمان مخلِّصًا لصاحبه من الخلود في النار؛ لذلك إذا رأىٰ أهلُ النار من الكفار خروجَ مَنْ في قلوبهم مثاقيل الذر من الإيمان والإسلام يتمنىٰ أحدهم أنه لو لقي الله بهذا الإسلام ووافاه بهذا الإيمان، وهو مصداق الرب ﷻ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]، وهذا حين يرون خروج المسلمين من النار ودخولهم بعد ذلك الجنة.

فالرب ﷻ لا يُظلم عنده أحد يوم القيامة، حين يضع الميزان القسط الذي لا نقص فيه ولا شطط، لا يُظلم عنده بما هو بوزن مثاقيل الذر.

ويُخرج الرب ﷻ من النار من في قلبه أدنىٰ مثقال حبة من خردل من

إيمان، ويتقدم هذا الخروجَ الشفاعةُ، فيشفع النبيون، ويشفع الصديقون، ويشفع الشهداء والصالحون، وتشفع الملائكة المقربون، حتىٰ إذا لم يبق أحد يشفع قال الرب ﷻ: بقيت شفاعةُ أرحم الراحمين، فحينئذ يُخرج الرب ﷻ من كان في قلبه أدنىٰ، أدنىٰ، أدنىٰ مثقال حبة خردل من إيمان.

ولا يخلد في النار إلا الكفار والمنافقون؛ لأن دخول النار شيء والخلود فيها شيء آخر، فالذين يدخلون النار ثلاثة طوائف، والذين يخلدون في النار طائفتان، ثلاثة طوائف تدخل النار: الكفار، والمنافقون، وعصاة المؤمنين، ولا يخلد فيها إلا الكفار والمنافقون.

والشفاعة لا بد لها من شرطين، لا بد من إذن الله ﷻ في الشافع، ولا بد من رضا الرب ﷻ عن المشفوع له؛ قال تعالىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

الشرط الأول: الإذن للشافع، حتىٰ الأنبياء عليهم السلام لا يتقدم أحد منهم للشفاعة إلا بعد أن يأذن الله ﷻ له، ولذلك لم يقبل الرب ﷻ ولم يأذن لنوح أن يشفع لابنه، ولم يأذن لإبراهيم أن يشفع لأبيه، ولم يقبل للنبي ﷺ أن يشفع لعمه.

الشرط الثاني: وجود الرضا للمشفوع له، لا بد أن يكون ممن وجد في قلبه ولو أدنىٰ مثاقيل الذر من الإيمان، بأن يكون قد وافىٰ الله ﷻ وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، أما أن يكون قد وافىٰ الله وقد تلبس بشيء من الشرك فإن الله ﷻ لا يغفر الشرك قليله ولا كثيره، صغيره ولا كبيره؛ لقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فهذا ما يتعلق بمسألة الشفاعة.

وأسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ، من سأل عنه أبو هريرة رضي الله عنه، حين

قال: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال له النبي ﷺ: «**لقد علمت أنه لن يسألني عن هذا أحد غيرك؛ لما علمت من حرصك علىٰ الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه**»[(١)] والشفاعة هي فضل الله، وفضل الله لا يحده حد ولا يحيط به عد، ففضل الله واسع، والله ذو الفضل العظيم، لذلك ممن ينعمون بشفاعة النبي ﷺ أهل الكبائر الذين أشار إليهم الإمام ابن أبي زيد القيرواني بقوله: «**وَيُخْرِجُ مِنْهَا بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ شَفَعَ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ**»، وكما جاء في الحديث: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»[(٢)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ح٩٩).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٤/ح٢٦٣٩)، وأبو داود في سننه (٤/ح٤٧٢٦)، وابن ماجه في سننه (٥/ح٤٤٣٥)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ح٥٥٩٨).

وَأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ خَلَقَ الْجَنَّةَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لأَوْلِيَائِهِ، وَأَكْرَمَهُمْ فِيهَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَهِيَ الَّتِي أَهْبَطَ مِنْهَا آدَمَ نَبِيَّهُ وَخَلِيفَتَهُ إِلَى أَرْضِهِ، بِمَا سَبَقَ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ.
وَخَلَقَ النَّارَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ وَأَلْحَدَ فِي آيَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَجَعَلَهُمْ مَحْجُوبِينَ عَنْ رُؤْيَتِهِ.

هذه المسألة تتضمن تقرير ثلاثة أصول من أصول أهل السنة والجماعة، تتعلق هذه الأصول بداري الثواب والعقاب، وهما الجنة والنار، وكل أصل من هذه الأصول الثلاثة فيها مخالفة منهم لطائفة من طوائف أهل البدعة والشناعة.

الأصل الأولىٰ: اعتقاد أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، وقد قرر ذلك في آيات عدة؛ ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، هي الآن معدودة ومهيأة، ولا تنتظر إلا إذن الله بدخول الأبرار إلىٰ جنات النعيم، وإلىٰ دخول الفجار إلىٰ دار الجحيم، والنبي ﷺ قد دخل الجنة ورأىٰ ما فيها، رأىٰ فيها قصر عمر رضي الله عنه، وسمع وطء نعلي بلال بن رباح رضي الله عنه، ورأىٰ من النعيم ما يصعب أن يوصف؛ لأنه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، حدَّث أصحابه ببعض هذا النعيم.

الأصل الثاني: أنهما خالدتان لا تفنيان، خلود الجنة ومن فيها، وخلود النار ومن فيها؛ لأن وجود الجنة شيء وبقاؤها شيء آخر، قد يكون الشيء

موجودًا الآن لكنه يفنىٰ، لكن الجنة قد أنعم الله علىٰ أهلها بهذين الأمرين: بأنها أعدت وموجودة الآن، ليس كما يقول أهل البدعة والشناعة أن وجودها الآن من قبيل العبث، بل وجودها الآن من قبيل فضل الله ﷻ؛ لأن إبراهيم عليه السلام لما لقي النبيَّ ﷺ ليلة عُرج به إلىٰ السماء، قال: «**يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، وأنها قيعان** -يعني تربتها صالحة للزرع- **وأن غرسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر**»[(١)].

فكلما قال أحدنا: سبحان الله، غرس الله له نخلةً في الجنة، وإذا قال: الحمد لله، غرس له نخلةً في الجنة، وإذا قال: الله أكبر، غرس له نخلةً في الجنة، وإذا قال: لا إله إلا الله، غرس له نخلةً في الجنة، فمن احتسب منكم بعد كل صلاة مفروضة حين يسبح الله ثلاثًا وثلاثين ويحمد الله ثلاثًا وثلاثين ويكبر الله ثلاثًا وثلاثين، ويقول تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير، فإن الله ﷻ يغرس له إثر كل صلاة مفروضة مائة نخلة، نسأل الله العظيم من فضله العظيم.

الأصل الثالث: قد يكون الشيء موجودًا وصاحبه منعم فيه لكنه قد يخشىٰ مع ذلك أن يدركه الفناء أو الزوال، فقرر أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار لا تفنيان، وهذا غاية ما يكون من النعيم، لذلك إذا دخل أهل الجنة الجنة، ودخل أهل النار النار، جيء بكبش وجعل بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، أتعرفون هذا؟ فتشرئب أعناقهم حذرًا من أن يكون

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٥/ح٣٤٦٢)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٧/ ح٣٤٦٢).

الموت يلحقهم في هذه الدار، فيقولون: نعم، إنه الموت، ويقال: يا أهل النار، أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، وتشرئب أعناقهم طمعًا في أن يكون الموت سيلحقهم فيفنيهم مما هم فيه من العذاب، ثم يذبح بين النار والجنة، فيقال: يا أهل الجنة، نعيم فلا موت، ويا أهل النار، عذاب فلا موت[(١)].

إذًا هذا غاية ما يكون من النعيم، ليس فقط أن تدخل الجنة التي قد هُيئت لك وأن تخلد فيها بل أن يطمئن قلبك وأن تقر عينك وأن ينشرح صدرك وأن ينصلح بالك؛ بأن هذه الجنة خالدة ما دامت السموات والأرض، وأنها لا تفنىٰ ولا تبيد، وكذلك النار -عافانا الله وإياكم منها وما قرب إليها من قول أو عمل-.

وقد جعل الله ﷻ النعيم الذي في الجنة درجات، وجعل العذاب علىٰ أهل النار دركات، فأدنىٰ نعيم يحصل لأهل الجنة هو دخول الجنة والتنعم فيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر.

وقال النبي ﷺ: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، كما أنهم اجتهدوا في إخفاء أعمالهم الصالحة -وهذا من باب إخلاصهم لله ومتابعتهم رسولَ الله ﷺ- جعل الله الجزاء من جنس العمل، فأخفىٰ عنهم الرب ﷻ هذا النعيم، وجعله مما لا تتصوره النفوس ولا تدركه العقول بالتأمل ولا تحيط به الألباب، فهو نعيم أدنىٰ مراتبه، كما جاء في حديث النبي ﷺ عن أبي سعيد الخدري في آخر رجل يخرجه الله ﷻ من النار فيدخله الجنة، يقول: يا ربي، أخرجني من النار فقد آذاني وهجها ولهيبها، فيقول له الرب ﷻ: أي عبدي، أرأيت إن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ح٤٧٣٠)، ومسلم في صحيحه (٨/ح٢٨٤٩).

خرجتك من النار أكنت سائلني غير ذلك؟ قال: لا يا ربي، وأي شيء أسألك بعد ذلك؟! أي نعيم أعظم من أن تخرجني من النار وتجعلني في حل منها، فإذا أخرجه الله من النار وأُلقي في نهر الحياة فينبت كما تنبت الحبة في طريق السيل، يقول النبي ﷺ: «**ألا ترون إلىٰ هذه الحبة ما كان منها جهة الشمس وما كان منها علىٰ الضد من ذلك**»، هذا الرجل إذ أخرج يسمع أصوات أهل الجنة وما فيها من الحبور والسرور، فيقول: أي ربِّ، أدنني إلىٰ باب الجنة حتىٰ أسمع أصوات أهلها، فيقول له الرب ﷻ: أي فلو -وهو تضخيم فلان- ألم تكن عاهدتني ألا تسألني غير ذلك؟ قال: يا ربِّ، لا أسألك غير ذلك، فإذا وقف علىٰ باب الجنة وتلذذ وتشوفت أذنه بما يسمع من هذا النعيم ومن هذا الحبور تشوفت نفسه أن يدخل أدنىٰ منازل الجنة، فيتذكر أنه قد عاهد الله ﷻ ألا يسأله غير ذلك، قال النبي ﷺ: «**والله ﷻ يعلم ما في نفس عبده**». ثم لا يجد بدًا أن يسأل الله ﷻ، يقول: أي ربِّ، أدخلني حتىٰ أنظر إلىٰ أهل الجنة وما هم فيه من النعيم، لا يريد النعيم يريد فقط أن ينظر إلىٰ هذا النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، فيقول له الرب ﷻ: ألم تكن عاهدتني ألا تسألني غير ذلك؟! قال: لا أسألك غير ذلك، هنا أقسم العبد علىٰ أنه لا يسأل الرب ﷻ غير ذلك، فإذا أدخله الله الجنة وقرت عينه بالنظر إلىٰ أهلها وما هم فيه من النعيم المقيم، جلس يتحسر علىٰ حاله وما هو فيه، والرب يعلم ذلك، يعلم ذلك فلا يصبر العبد أن يسأل الله ﷻ أن يكون مع أهل الجنة، فيقول له الرب ﷻ: يا ابن آدم، ما يفصلني منك؟ يعني ما الذي تريده حتىٰ تنقطع عن سؤالك وتكف عن المواعيد التي تأخذها علىٰ نفسك ولا توفي بها، فيستحي العبد حينئذ، فيقول له الرب ﷻ: أي فلو، أترضىٰ أن يكون لك مثل أعظم ملك من ملوك الأرض؟ مَلِكٌ مَلَكَ الشرق والغرب

ولم يملك الأرض شرقها وغربها إلا أربعة، مؤمنان وكافران، مؤمنان وهما سليمان بن داود عليه السلام وذو القرنين، وكافران وهما النمرود الذي حاج إبراهيم أن أتاه الله الملك، وبختنصر.

يعطي الله ﷻ آخر من يدخل الجنة ممن عذب في النار، أعظم من ملك من ملوك الأرض، فيقول هذا العبد لربه: أتسخر بي وأنت رب العالمين؟! فضحك النبي ﷺ، فقيل له: يا رسول الله، مما تضحك؟ قال: «**ضحكت من ضحك الرب** ﷻ **حين قال له عبده: أتسخر بي وأنت رب العالمين**»؟! قال: «**لا أسخر بك وأنا علىٰ ذلك قادر**»، فلما اطمأن العبد إلىٰ صدق وعد الله الذي لا يخلف الميعاد، قال: ويذكره الله، سل كذا وكذا، فإذا انقطعت به الأماني، قال الله: «**هو لك وعشرة أمثاله**»[1]، يعني لك عشرة أمثال أعظم ملك من ملوك الأرض، إذا كان أعظم ملك من ملوك الأرض يكفي النعيم الذي هو فيه يكفي للتنعم، مع أن هذا الملك لم يخلد في ملكه ولم يبق حيًّا لينعم في ملكه، فكيف بمن ينعم في الجنة بلا موت؟! يكفيه أدنىٰ أعظم ملك من ملوك أهل الأرض، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، هذا أدنىٰ نعيم ينعم به آخر من يدخل الجنة من أهلها، هذا آخر ما يكون من النعيم.

لكن وراء هذا النعيم ما هو أعظم في نفوس أهل الجنة منه، وهو أن يحل الرب ﷻ عليهم رضوانه كما قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، أكبر مما هم فيه من النعيم أن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ح٢٢)، ومسلم في صحيحه (١/ح١٨٣).

يحل الله ﷻ عليه رضوانه؛ كما في صحيح مسلم: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، نادىٰ منادٍ يا أهل الجنة أتريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: وأي شيء تزيدنا يا رب ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة؟ ألم تجرنا من النار؟ قال: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»[(١)]، فهذا أعظم مما هم فيه من النعيم؛ لأن الإنسان قد ينعم لكن هل هو في أمنة أن الله ﷻ لا يقلب رضوانه عليه إلىٰ سخط؟ ليس بمأمن، لكنه إذ اطمأن إلىٰ أن الله ﷻ قد أحل عليه رضوانه فلا يسخط عليه بعده أبدًا حصلت له الطمأنينة، إذًا مرتبة الرضوان فوق مرتبة النعيم، وفوق مرتبة الرضوان هو أن يكشف الرب ﷻ لأهل الجنة عن حجاب النور، فما أُعطي أهل الجنة نعيمًا أعظم من لذة النظر إلىٰ وجه الله الكريم؛ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، هذا أعظم ما يكون من النعيم.

وأدنىٰ أهل الجنة منزلةً من يرىٰ الله ﷻ في يوم المزيد، وهو يوم الجمعة بالنسبة إلىٰ أهل الجنة، يوم الجمعة في الجنة يسمىٰ بيوم المزيد؛ لأن أهل الجنة يذهبون إلىٰ سوق في الجنة يسمىٰ بسوق المزيد، فينظرون إلىٰ وجه الله الكريم، فيزدادون حسنًا وجمالًا، فإذا رجع أهل الجنة إلىٰ أهليهم قال لهم أهلوهم: والله، لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا!! ينعكس وجه ذي الجلال والإكرام علىٰ وجوه أهل الجنة فيزدادون حسنًا وجمالًا.

ثم ينعكس جمال وجوه أهل الجنة علىٰ وجوه أهليهم، فيقول لهم أهل الجنة: فوالله أنتم لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا. هذه أعلىٰ مراتب النعيم.

ومن أهل الجنة، -نسأل الله ﷻ من فضله العظيم-، هم المقربون وهم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ح٦٥٤٩)، ومسلم في صحيحه (٨/ح٢٨٢٩).

من يرىٰ الله بكرةً وعشيًّا، وهذا غاية ما يكون من النعيم المقيم.

وعلىٰ الضد من ذلك الشأن بالنسبة لأهل النار، فكما أن الجنة درجات فكذلك النار وما يعذب فيها أهلها دركات، فأول دركات النار أن يدخل من حقت عليه كلمة العذاب النار ويخلد فيها.

ويزاد لأهل النار في أجسامهم حتىٰ يزاد في عذابهم، حتىٰ جاء في بعض الأحاديث إن ضرس الكافر في نار جهنم أعظم من جبل أحد.

وأبلغ في نفوسهم مما هم فيه من العذاب يقينهم أن الله قد أحل عليهم سخطه، فلا يدركهم بعد ذلك نعيم الله، فلا يطمع أحدهم في رضا الله، وأبلغ من ذلك وهو غاية ما يكون من العذاب الذي يعذب فيه أهل النار: أن يحتجب الرب ﷻ عنهم، كما قال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦].

قال الإمام ابن قيم الجوزية: في «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح»: فذكر العذاب الروحاني الذي هو أعظم، وقدمه علىٰ العذاب الجسماني، العذاب الروحانيُّ هو احتجاب الرب ﷻ عنهم، وهو أعظم مما هم فيه من العذاب الجسماني، -نسأل الله ﷻ العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة-.

ولما ذكر الجنة قال: (وَهِيَ الَّتِي أَهْبَطَ مِنْهَا آدَمَ نَبِيَّهُ وَخَلِيفَتَهُ إِلَىٰ أَرْضِهِ، بِمَا سَبَقَ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ).

وهذا اختيار الإمام ابن أبي زيد القيرواني للقول الذي اختلف فيه؛ ما هي الجنة التي أسكن الله ﷻ آدم وزوجه حواء فيها ثم أهبطهم منها؟

القول الأول: هي الجنة التي هي دار الخلود؟

القول الثاني: هي جنة في الأرض مرتفعة عالية؟

القول الثالث: التوقف في ذلك.

وجمهور أهل السنة والجماعة علىٰ القول الأول: وهو أن آدم قد أدخله الله ﷻ جنة الخلد، لكن إدخاله إياها لم يكن إدخال نعيم ينعم فيها نعيم الخالدين، وإنما أدخله إدخال نعيم ينعم فيها ما شاء الله ﷻ أن ينعم فيها حتىٰ يأتي قدر الله ﷻ المكتوب؛ فيصاب بما أصيب به من الوقوع من الأكل من الشجرة بما سبق في علم الله ﷻ السابق الأزلي، وهذا القول رجحه الإمام ابن قيم الجوزية في «مِيمِيَّتِهِ»، فقال:

فحيَّ عَلَىٰ جَنَّاتِ عَدنٍ فإنَّها مَنازِلَنا الأُولَىٰ وفِيها المُخَيَّمُ
ولَكنَّنا سَبيُ العدُوِّ فَهَل تَرَىٰ نَعوُد إلَىٰ أوطَانِنا وَنُسلِّمُ

وقد ذكر هذا القول مع القولين في «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح» لكنها أقوال مجردة عن الترجيح، لم يرجح وإنما قرر دليل كل طائفة، لكنه لما جاء إلىٰ منظومته الميمية رجح القول الأول الذي تنعطف عليه النصوص الشرعية وتدل عليه وتؤيده وتقرره.

قوله: (وَخَلَقَ النَّارَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ وَأَلْحَدَ فِي آيَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَجَعَلَهُمْ مَحْجُوبِينَ عَنْ رُؤْيَتِهِ).

إذن المحجوبون عن رؤية الله هم من كتب الله ﷻ عليهم الخلود في النار وهم الكفار والملحدون والمنافقون ومن شاكلهم ووافقهم.

وَأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا؛ لِعَرْضِ الأُمَمِ وَحِسَابِهَا وَعُقُوبَتِهَا وَثَوَابِهَا، وَتُوضَعُ الْمَوَازِينُ لِوَزْنِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَيُؤْتَوْنَ صَحَائِفَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَأُولَئِكَ يَصْلَوْنَ سَعِيرًا.

هذه المسألة فيها ذكر بعض مشاهد اليوم الآخر، هذا اليوم العبوس القمطرير الذي لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا، هذا اليوم الذي يفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، لكل امرئ في هذا اليوم العظيم الذي لا يوصف له شأن يغنيه عن أن يلتفت إلىٰ أحد؛ لذلك لما قال رسول الله ﷺ لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «**يحشر الناس حفاةً عراةً غرلًا**»، قالت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلىٰ بعض، قال: «**يا عائشة الأمر أعظم من أن يهمهم ذلك**»[1]، أبصارهم شاخصة إلىٰ السماء ينتظرون فصل القضاء، كل واحد منهم قد شغله ما ينتظره من هذا الحساب؛ فهو لا يدري أيجازىٰ بالثواب أم يجازىٰ بالعقاب.

وفي هذا اليوم يجيء الرب ﷻ لعباده، كما جاء أن الرب ﷻ يجيء يوم القيامة مجيئًا يليق بجلاله وجماله وكماله، وهي من صفات أفعاله ﷻ صفة حقيقية، يجيء هو والمَلَك صفًّا صفًّا، وهذا لهول الموقف! أن الملائكة تصف بين يدي الرب ﷻ صفًّا صفًّا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن.

وهذا الموقف الذي يتراجع عنه آدم وأولو العزم من الرسل، كلهم يقول:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ح٢٨٥٩).

نفسي، نفسي، لا يتقدم أحد بين يدي الرب ﷻ، تصف الأمم وتعرض علىٰ ربها ﷻ لحسابها ثم ترىٰ كل أمة سبيلها إما إلىٰ جنة وإما إلىٰ نار، ويبين الرب ﷻ دلائل عدله، فمن ذلك الميزان الذي يوضع والذي توزن فيه الأمور وتوزن فيه مثاقيل الذر.

ومن ذلك ما يُعطاه كل واحد من كتابه ينظر فيه في كتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، وهذا اليوم أعظم الناس خشية وشفقةً أولو العزم من الرسل وآدم قبلهم، كل واحد منهم يستحضر ما قدمه وأحدثه بين يدي الرب ﷻ ولسان أحدهم: نفسي، نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، حين تفزع الخليقة إلىٰ آدم ثم تفزع إلىٰ نوح ثم تفزع إلىٰ إبراهيم، ثم تفزع إلىٰ موسىٰ ثم تفزع إلىٰ عيسىٰ عليهم الصلاة والسلام، كل واحد منهم يقول: نفسي، نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، ويعتذر بذنب اقترفه إلا عيسىٰ عليه السلام، فإنه يقول: نفسي، نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، ولم يذكر عليه السلام ذنبًا، حتىٰ ينتهي الأمر إلىٰ النبي ﷺ، فيقول: «**أنا لها، أنا لها، فيذهب فيسجد بين يدي الرب ﷻ فيفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه ما لا يحسنه ساعة تحدثه ﷺ بهذا الحديث**»[(١)].

والرب ﷻ يقيم الموازين القسط التي تظهر كمال عدله، فمن ذلك أنه يرفع الحجاب بينه وبين عبده، ليس بينه وبين الله حجاب ولا ترجمان، فيقرره بعمله، فإن أقر العبد وإلا خلا الرب ﷻ بينه وبين صحيفته، فإن أقر العبد وإلا ختم الله ﷻ علىٰ فيه ويُنطق جوارحه لتتحدث بكل ما عملت؛ قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ح٧٥١٠)، ومسلم في صحيحه (١/ح١٩٣).

ثم يقيم الله الموازين التي تتجلىٰ فيها غاية ما يكون من العدل، فتارةً توزن فيها صحائف الأعمال، توضع صحائف الحسنات في كفة وصحائف السيئات في كفة، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣].

وتارةً يوضع العبد في الميزان فيوزن، وساقا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي هو من أضعف الصحابة وأقصرهم قامةً، شبههما النبي ﷺ بأنهما أثقل في الميزان من جبل أحد؛ قال ﷺ: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين فيوضع في الميزان يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة**»[(١)].

والوزن الثالث: أن تُجسم أعمالنا وتكون علىٰ هيئة توضع في الميزان، يقول النبي ﷺ: «**ليس شيء أثقل في الميزان يوم القيامة من حسن الخلق**»[(٢)]، نسأل الله أن يحسن لي ولكم الأخلاق وأن يوقفنا لحسن معاشرة الناس بالحسنىٰ.

هذه ثلاثة أمور توزن كلها لتجلية عدل الرب جل جلاله وأنه كما قال: لا ظلم اليوم، هذا اليوم لا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل فإن الله عز وجل يأتي بها علىٰ الوجه الذي تتجلىٰ فيه وتظهر فيه آثار عدل الرب -تبارك وتعالىٰ-.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ح٤٧٢٩)، ومسلم في صحيحه (٨/ح٢٧٨٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢/ح٢٨١٧٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ح٥٣٩٠).

وَأَنَّ الصِّرَاطَ حَقٌّ، يَجُوزُهُ الْعِبَادُ بِقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَنَاجُونَ مُتَفَاوِتُونَ فِي سُرْعَةِ النَّجَاةِ عَلَيْهِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وقَوْمٌ أَوْبَقَتْهُمْ فِيهَا أَعْمَالُهُمْ.

هذا موطن آخر من مظاهر عدل الله ﷻ في هذا اليوم، في فصل القضاء الذي يقول الرب ﷻ: لا ظلم اليوم. من مظاهر نفي الظلم في هذا اليوم هو الصراط الذي ينصب علىٰ متن جهنم، مصداقًا لقول الرب ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

يوضع هذا الميزان ويتجاوزه الناس علىٰ قدر أعمالهم، علىٰ قدر المسابقة في الخيرات، علىٰ قدر المسارعة في الصالحات تكون سرعة الناس، منهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح المرسلة، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل، ومنهم من يمر كأشد ما يكون عدوًا من الرجال، أي سرعةً، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يحبو حبوًا بل منهم من يزحف زحفًا، وكل هؤلاء من الناجين.

ومن الناجين من تخطفهم الخطاطيف، ويتعلقون بالكلاليب وتمسكهم الحسكة، وهو الشوك الذي يعلق فوق الصراط، كل كلوب وكل حسكة وكل آخذة تأخذ صاحبها بالذنب الذي ابتلي به، فهذا ربما أخذ بسبب العقوق، وهذا ربما أخذ بسبب الربا، وهذا أخذ بسبب الزور، وهكذا، فربما زادت حسناته علىٰ سيئاته فيطلق، فيكمل مسيره وربما أُخذ فأُوبق ونكس علىٰ وجهه في نار جهنم.

ويقف علىٰ جانبي الصراط أمران: الأمانة والرحم، يقف علىٰ جانبي الصراط الأمانة التي نأت وابتعدت وخشيت السماوات والأرض والجبال

بحملها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا، فعلىٰ قدر أمانة العبد يكون سيره.

والأمر الثاني: الرحم التي اشتق لها الرب ﷻ اسمًا من أسمائه وهو الرحمن، وتعلقت بالعرش فقالت: يا رب، هذا مقام العائذ بك، فقال: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأن أقطع من قطعك.

فأعظم سببين يعينان علىٰ عبور الصراط الأمانة، وصلة الرحم، نسأل الله ﷻ أن يجعل في قلوبنا الأمانة وأن يوفقنا لصلة أرحامنا.

ودعوة الأنبياء علىٰ الصراط: اللهم سلم سلم، اللهم سلم سلم.

وهذه المقدمة قد تضمنت جملةً من مباحث الاعتقاد الهادي إلىٰ سبيل الرشاد، وكنا قد توقفنا عند مسألة الإيمان بحوض رسول الله ﷺ.

وقبل أن نلج في هذه المسألة نتدارس أبيات العلامة أحمد بن مشرف الأحسائي، في الثلاثة فصول التي تدارسناها نثرًا، وهي فصل الإيمان بالقدر خيره وشره، وفصل عذاب القبر وفتنته، وفصل البعث بعد الموت والجزاء.

فصل في الإيمان بالقدر خيره وشره

وبالقضاء وبالأقدار أجمعها ... إيمانُنا واجبٌ شرعًا كما ذكرَا
فكلُّ شيء قضاه الله في أزَل ... طُرًّا وفي لوحه المحفوظ قد سطرَا
وكلُّ ما كان من همٍّ ومن فَرحٍ ... ومن ضلالٍ ومن شكرانِ مَن شكرَا
فإنَّه من قضاء الله قدَّره ... فلا تكن أنت مِمَّن ينكرُ القدرَا
والله خالقُ أفعالِ العبادِ وما ... يجري عليهم فعن أمرِ الإلَه جرَا
ففي يديه مقاديرُ الأمور وعن ... قضائه كلُّ شيء في الورىٰ صدرَا
فمَن هَدىٰ فبمحضِ الفضلِ وفَّقه ... ومن أضلَّ بعدلٍ منه قد كفرَا
فليس في مُلكه شيءٌ يكون سوىٰ ... ما شاءَه اللهُ نفعًا كان أو ضررَا

هذا الفصل قد انطوىٰ علىٰ المعاني التي قُررت نثرًا وجاء ذكرها شرحًا، وهو أن القضاء والقدر هو أحد أركان الإيمان، وأن مبنىٰ هذا الركن علىٰ أسس أربعة:

الأول: الإيمان بعلم الله الشامل المحيط، وأن كل شيء قد سبق به علم الرب ﷻ في الأزل.

الثاني: كتابة الرب ﷻ في اللوح المحفوظ.

الثالث: أنه لا يقع إلا بعد مشيئة الله ﷻ.

الرابع: أنه إذا شاء الله ﷻ خلقه وأنه يخلقه علىٰ وفق ما سبق علمه وسطره في اللوح المحفوظ، وأن الرب ﷻ قد أوحىٰ إلىٰ كل نفس هداها، قال تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨]، فمن أُلهم التقوىٰ فهذا محض فضل الله تعالىٰ، ومن ابتلي بالشقاوة فهذا هو عدل الله ﷻ؛ لأن الله

ﷻ قد أعلمه بما يحبه، وهداه لمعرفة طريقي الخير والشر؛ قال تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

فالإنسان هو الذي اختار طريق الشر، وتنكَّب طريق الهدىٰ، وقد جعل للعبد المشيئة، فهو الذي يشاء وهو الذي يختار، ومشيئتُه واختيارُه داخلةٌ تحت مشيئة الله ﷻ واختياره، وأن كل ما في الكون من رطب ومن يابس كله في علم الله ﷻ، لا يخرج عن علمه وملكه مثقال ذرة في السموات ولا الأرض ولا أدنىٰ من ذلك ولا أصغر، فكل ذلك مسطر في كتاب مبين.

فصل في عذاب القبر

و لم تَمُت قطُّ من نفس وما قُتلت ... من قبل إكمالها الرِّزق الذي قُدرَا
وكلُّ روحٍ رسولُ الموت يقبضُها ... بإذن مولاه إذ تستكمل العُمُرَا
وكلُّ من مات مسؤولٌ ومفتتنٌ ... من حينِ يوضعُ مقبورًا ليُختبرَا
و أنَّ أرواحَ أصحاب السعادة في ... جنَّات عدن كطير يعلق الشَّجَرَا
لكنَّما الشُّهدَا أحيا وأنفسهم ... في جوف طير حسان تُعجب النَّظَرَا
وأنَّها في جنان الخلد سارحةٌ ... من كلِّ ما تشتهي تجني بها الثَّمرَا
وأنَّ أرواح من يشقىٰ معذَّبةٌ ... حتَّىٰ تكون مع الجُثمان في سَقَرَا

هذا الفصل قد تقدم تقريره وما يتعلق بأحوال البرزخ وما فيها من الأهوال العظيمة، وأن اعتقاد أهل السنة والجماعة أن كلَّ نفس يقبضها ملكُ الموت بأجل لا يتقدم في قبضه ولا يتأخر، وأنها قد استوفت ما كتب عليها وهي في رحم أمها من كلمات أربع؛ بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد، فتستوفي هذه الأمور الأربعة.

وأن كل من مات هو مسؤول ومفتتن سواء كان حاله كعامة الأموات بأن يقبض في هذه الأرض التي جعلها الله ﷻ للأحياء والأموات، كما قال الله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦].

أو كان قبره في بطون السباع أو في بطون البحار أو ذرته الرياح، كل من مات فقبره في المكان الذي مات فيه، وأن الناس تتفاوت أرواحهم بحسب تفاوت أعمالهم.

ولا شك ولا ريب أن أرفع الأرواح أرواح الأنبياء ثم أرواح الصديقين

ثم أرواح الشهداء ثم أرواح الصالحين، والصالحون أرواحهم منعمة في روضة من رياض الجنة، والشهداء أرواحهم في حواصل طير خضر تَرِدُ أنهارَ الجنة وتعلق في قناديلها، معلقة في العرش.

وعلىٰ الضد من ذلك أرواح الأشقياء، فإنها في حفرة من حفر النار، تلتئم عليهم قبورهم حتىٰ تختلف أضلاعهم، -نسأل الله ﷻ العفو والعافية والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة-.

فصل في البعث بعد الموت والجزاء

وأنَّ نـفـخـةَ إسـرافـيـلَ ثـانـيـة ... في الصُّور حقٌّ فيحيا كلُّ مَن قُبرَا
كـمـا بـدا خـلـقـهـم ربِّي يُـعـيـدُهـم ... سبحان من أنشأ الأرواحَ والصُّوَرَا
حـتىٰ إذا مـا دعـا لـلـجـمـع صـارخُـه ... وكـلُّ ميْـت مـن الأمـوات قـد نُـشـرَا
قـال الإلَـه: قِـفـوهـم لـلـسـؤال لـكـي ... يـقـتـصَّ مـظـلُـومُـهـم مِـمَّـن لـه قَـهَـرَا
فـيـوقَـفـون ألـوفـًا مـن سـنـيـنـهـمُ ... والـشـمـسُ دانـيـةٌ والـرَّشْـحُ قـد كـثُـرَا
وجـاء ربُّـك والأمـلاكُ قـاطـبـةً ... لـهـم صـفـوفٌ أحـاطـت بـالـورىٰ زُمـرَا
وجـيء يـومـئـذ بـالـنـار تـسـحـبُـهـا ... خـزَّانـهـا فـأهـالـت كـلَّ مَـن نـظـرَا
لـهـا زفـيـرٌ شـديـدٌ مـن تـغـيـظـهـا ... علىٰ العُصاة وترمي نحوهم شرَرَا
ويـرسـل الله صُـحـف الـخـلـقِ حـاويـةً ... أعـمـالَـهـم كـلَّ شـيء جـلَّ أو صـغُـرَا
فـمَـن تـلـقَّـتـه بـالـيـمـنىٰ صـحـيـفـتُـه ... فـهْـو السَّـعـيـد الـذي بـالـفـوز قـد ظـفـرَا
ومـن يـكـن بـالـيـد الـيـسـرىٰ تـنـاوِلـهـا ... دعـا ثُـبـورًا ولـلـنـيـران قـد حُـشـرَا
ووزنُ أعـمـالـهـم حـقٌّ فـإن ثـقـلـت ... بـالـخـيـر فـاز وإن خـفَّـت فـقـد خـسـرَا
وأنَّ بـالـمـثـلِ تُـجـزىٰ الـسـيِّـئـات كـمـا ... يـكـونُ فـي الـحـسـنـات الـضِّـعـفُ قـد وفـرَا
وكـلُّ ذنـبٍ سـوىٰ الإشـراكِ يـغـفـرُه ... ربِّي لِـمَـن شـا ولـيـس الـشـركُ مُـغـتَـفَـرَا
وجـنَّـةُ الـخُـلـد لا تـفـنـىٰ وسـاكـنُـهـا ... مـخَّـلـدٌ لـيـس يـخـشـىٰ الـمـوتَ والـكـبـرَا
أعـدهَّـا الـلـهُ دارًا لـلـخـلـود لِـمَـن ... يـخـشـىٰ الإلَـهَ ولـلـنَّـعـمـاء قـد شـكـرا
ويـنـظـرونَ إلـىٰ وجـهِ الإلـه بـهـا ... كـمـا يـرىٰ الـنـاسُ شـمـسَ الـظـهْـرِ والـقـمـرَا
كـذلـك الـنـارُ لا تـفـنـىٰ وسـاكـنُـهـا ... أعـدهَّـا الـلـه مـولانـا لـمَـن كـفـرَا

ولا يــخـلـد فـيـهـا مَـن يـوَحِّـدُه ولو بسفكِ دمِ المعصوم قد فَجَرَا
وكم يُنجي إلَهي بالشفاعة مِنْ خير البريِّة من عاص بِها سُجِرَا

هذه الأبيات المندرجة تحت هذا الفصل فيها إثباتُ نفختين، نفخة الصعق، ونفخة البعث، التي يبعث فيها العباد فيقومون بين يدي ربهم حفاة عراةً غرلًا، يسمعهم الداعي ويشخصهم البصر، ويوقفهم الرب ﷻ للسؤال، يسألهم عن مثاقيل الذر، فإما أن يعاملهم الرب ﷻ عدلًا منه فيناقشهم الحساب نقاشًا، وإما أن يعاملهم الرب ﷻ بفضله فيعرض عليهم الحساب عرضًا.

ويكون هذا اليوم قد جاء الرب ﷻ والملك صفًّا صفًّا، وتدنو الشمس من رءوس الخلائق حتىٰ تكون فوق رؤوسهم بمقدار ميل، ويبلغ العرق من الناس علىٰ قدر ذنوبهم وعلىٰ قدر عيوبهم.

وتتطاير الصحف، فآخذٌ كتابَه بيمينه، وآخذٌ كتابه بشماله من رواء ظهره، وتوضع الموازين التي يوزن فيها مثاقيل الذر، إما أن توزن صحائفهم وإما أن توزن أعمالهم وإما أن توزن أجسادهم، ثم يَرىٰ كل واحد سبيلَه؛ إما إلىٰ جنة ينعم فيها فلا يبأس فيها ولا ييأس، وإما أن يكون سبيله إلىٰ نار فيعذب فيها ويخلد.

والرب ﷻ لا يظلم في هذا اليوم مثقال ذرة، ويغفر كل ذنب اقترفه واجترحه عبده إلا الشرك فإنه لا يغفره، ولو كان الذنب الذي دون الشرك قد بلغ به صاحبه أعظم درجات الفجور، وهو قتل النفس المعصومة التي حرم الله قتلها إلا بالحق فهو داخل تحت مشيئة الله ﷻ، وإما أن يأذن أن يشفع فيه النبي ﷺ.

وَالإِيمَانُ بِحَوْضِ رسول اللهِ ﷺ تَرِدُهُ أُمَّتُهُ لا يَظْمَأُ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ، وَيُذَادُ عَنْهُ مَنْ بَدَّلَ وَغَيَّرَ.

وننتقل إلىٰ مسألة الإيمان بحوض النبي ﷺ:

هذا الحوض موصوف بأوصاف كأننا نراه رأي عين، ومختصر ذلك: أن من ورد في الدنيا حوض سنته فإنه سَيَرِدُ في الآخرة حَوضَ كرامته، علىٰ قدر ما يوفق العبد وتُهدىٰ الأمة إلىٰ موافقة النبي ﷺ في سنته التي هي حوضه الذي يشرب منه الشاربون وينهل منه المتبعون: علىٰ قدر ما يُهدىٰ يوم القيامة إلىٰ حوض النبي ﷺ، الذي وردت روايات عدة في وصفه جمعها بعض المحدثين فبلغ بها ما يزيد علىٰ ثلاثين رواية.

ورد وصف هذا الحوض وصفًا دقيقًا، فجاء وصفه بأن مسيرته شهر وأن طوله وعرضه سواء، أي طوله شهر وعرضه شهر، وهذا يدلنا علىٰ أنه مربع الهيئة والشكل، وَوُصِفَ ماؤه من شدة بياضه بأنه يفوق اللبن، ورائحته وعبق زكائه بأنها تفوق المسك، وأن طعمه أحلىٰ من العسل، وأنه لا يشرب منه بالكف وإنما له كيزان، وهي الأكواب، الكوز هو الكوب، نظير الكلمة في مطلعها، فيشرب أهل الموقف من هذا الحوض بكيزان، عددها كعدد نجوم السماء، حتىٰ لا ييأس أحد أو يظن أنه سينتظر الآخرين حتىٰ يفرغوا من شربهم؛ بل هي أعداد كثيرة لا يحصيها إلا الله، وأن من شرب منه شربةً لم يظمأ بعدها أبدًا.

وجاء في وصف لونه بالبياض، تارةً شُبِّهَ بياضُه باللبن وتارةً بالورق وهو الفضة، ووصفت رائحته ووصفت أكوابه ووصف ريه، وجاء في بعض الأحاديث تشبيه المسافة التي عليها هذا الحوض، بأن طوله كما بين عمان وأيلة، أو كما بين اليمن وبصرىٰ، وأن النبي ﷺ يعرف من يقصده من أمته حتىٰ إن بعض أفراد أمته لَيُخْتَلَجون ويُبْعَدون ويُختَطَفون دونه، فيقول ﷺ: «**يا رب أصحابي**»، وفي رواية: «أصيحابي» والمقصود أتباعه علىٰ دينه، أو أصحابه والتابعون له بإحسان، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك؟!

فإن كان المراد في الحقيقة صحابة النبي ﷺ وهم من رأوا النبي ﷺ وآمنوا به، فيكون ممن يذاد عن هذا الحوض هم من ابتلوا بالردة بعد وفاة النبي ﷺ وهم من منعوا الزكاة فقاتلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين، وإن كان المراد عموم الأمة فإنَّ كلَّ من غير وبدل: فإنه يذاد عن حوض النبي ﷺ الذي هو أعظم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- حوضًا وأكثرهم واردًا، وقد جاء في بعض الأحاديث -كما ذكرها البلقيني في شرح السنة- أن لكل نبي حوضًا وأن حوض صالح ضرع ناقته، أسأل الله ﷻ أن يكرمنا جميعًا بورود حوض النبي ﷺ غير مبدلين ولا مغيرين، وأن يكرمنا بمتابعة سنته في هذه الدنيا.

وَأَنَّ الإِيمَانَ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَإِخْلاَصٌ بِالْقَلْبِ، وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ، يَزِيدُ بِزِيَادَةِ الأَعْمَالِ، وَيَنْقُصُ بِنَقْصِهَا، فَيَكُونُ فِيهَا النَّقْصُ وَبِهَا الزِّيَادَةُ، ولا يَكْمُلُ قَوْلُ الإِيمَانِ إِلاَّ بِالْعَمَلِ، ولا قَوْلٌ وَعَمَلٌ إِلاَّ بِنِيَّةٍ، ولا قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ إِلاَّ بِمُوَافَقَةِ السُّنَّةِ.
وَأَنَّهُ لا يَكْفُرُ أَحَدٌ بِذَنْبٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ.

هذا تقرير اعتقاد أهل السنة والجماعة في الإيمان، وقد ابتدأ به رسالته وناسب أن يذكره في خاتمتها، وهو أن الإيمان مؤلف من أمور ثلاثة، اعتقاد القلب، ونطق اللسان، وعمل الجوارح.

هذا الإيمان موصوف بأوصاف تميز معتقد أهل السنة والجماعة عن بعض طوائف البدعة والشناعة، فالخوارج يوافقون أهل السنة والجماعة في هذا المعتقد بأن الإيمان مركب من ثلاثة أركان، اعتقاد جنان ونطق لسان وعمل أركان، لكن أهل السنة خالفوهم بأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، بخلاف معتقد الخوارج بأن الإيمان جزء واحد، إذا ذهب بعضه ذهب كله، وهذا ما أشار إليه بقوله: (وَأَنَّهُ لا يَكْفُرُ أَحَدٌ بِذَنْبٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ).

فمن وقع عند الخوارج بذنب فإنه يكفر بهذا الذنب؛ لأنه بمجرد ذهاب شيء من إيمانه يذهب إيمانه كله بالكلية، هذا خلاف معتقد أهل السنة والجماعة، فعندهم إيمان باللسان وهو قول واجب وقول مستحب، أما القول الواجب فهو قول لا إله إلا الله، وأما القول المستحب فهو عموم ذكر الله ﷻ، وعندهم اعتقاد بالجنان، وهو اعتقاد واجب واعتقاد مستحب، اعتقاد واجب بالقلب وهو اعتقاد وحدانية الله ﷻ وأنه وحده المستحق للعبادة،

واعتقاد مستحب وهو ما يودع في القلب من الخشية والتوكل والإنابة والمحبة والرغبة والرهبة، وكذلك عمل بالجوارح عمل واجب وعمل مستحب، عمل واجب وهو فرائض الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام والحج وبر الوالدين، وعمل مستحب كقيام الليل وكالصدقة وكالعمرة وكنوافل الصيام، كل ذلك من الأعمال المستحبة التي يزيد العبد بزيادتها إيمانًا، وينقص بنقصها حتىٰ ربما لم يبق معه إلا مثاقيل الذر من الإيمان، فبحسب هذه الأعمال تكون الزيادة ويكون النقص.

وعلىٰ هذا القول الإيمان لا يكمل إلا بعمل، لا يكفي أن يقول الإنسان: أشهد أن لا إله إلا الله حتىٰ يضمه مع العمل الذي يصدق شهادته لله بالتوحيد وشهادته للنبي ﷺ بالرسالة للعبيد.

ولا يكفي العمل إلا بأن تقترن معه النية، وهو أن يريد بعمله وجه الله تعالىٰ، ولا يكتفىٰ بالنية الصالحة حتىٰ يضم إليها متابعة النبي ﷺ هذه شروط قبول الأعمال.

هذا الاعتقاد الذي أشار إليه مباين لطائفتين من طوائف البدعة والشناعة، من الغلاة والجفاة، من أهل الإفراط وأهل التفريط، فأما الغلاة فهم الخوارج والمعتزلة، فالخوارج معتقدهم بأن من ارتكب كبيرةً خرج من الإسلام بالكلية ودخل في الكفر، وعند المعتزلة يخرج من الإسلام ويبقىٰ في منزلة بين المنزلتين لا هو بمسلم ولا هو بكافر، عند الخوارج إذا مات فإنه لا يغسل ولا يكفن ولا يصلىٰ عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين ولا يرث ولا يورث، وعند المعتزلة يعامل معاملة المسلمين، يغسل ويكفن ويصلىٰ عليه ويدفن في مقابر المسلمين ويورث، وفي الآخرة عند الطائفتين من الخوارج والمعتزلة مآله إلىٰ جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، لكن الخوارج ذهبوا في غلوهم إلىٰ أنه

في درجة فوق درجة الكافرين؛ لأنه آمن ثم نقض وارتد، وعند المعتزلة أن عذابه دون عذاب الكافرين، أخف من عذاب الكافرين.

يقابل هؤلاء الوعيديةَ أو غلاة أهل الإفراط أهلُ الجفاء والتفريط وهم المرجئة الذين يقولون أنه لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، كما أن الكافر إذا تصدق لم تنفعه صدقته، كذلك المؤمن إذا أذنب ولو أذنب ما أذنب لا يضره ذنبه، فالناس في الإيمان كرؤوس المشط، إيمان جبرائيل في نظرهم كإيمان أفسق الفاسقين، بل عند غلاتهم أن كل من عرف الله فهو مؤمن، فعندهم أن إبليس مؤمن؛ لأنه قال: ربِّ بما أغويتني، فهو نادىٰ الرب ﷻ بربوبيته واعترف أنه ربه، وهذا غاية ما يكون من الضلال والوبال، -نسأل الله ﷻ العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة-.

وَأَنَّ الشُّهَدَاءَ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، وَأَرْوَاحُ أَهْلِ السَّعَادَةِ بَاقِيَةٌ نَاعِمَةٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، وَأَرْوَاحُ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ مُعَذَّبَةٌ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

ذكر في هذه المسألة ما أجمله الناظم في منظومته، فذكر أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون مع أن جميع الأموات أحياء، منهم من هو في روضة من رياض الجنة، ومنهم من هو في حفرة من حفر النار، لكن الشهداء لما بذلوا أجسادهم في سبيل الله أعادها الله وجعل أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة وتسرح وتمرح ثم ترجع إلىٰ قناديل معلقة في العرش فتأوي إليها، وأرواح ما عداهم من الصالحين منعمة في روضة من رياض الجنة، يفسح لهم في قبورهم مد أبصارهم، وترجع أعمالهم التي جاءت علىٰ هيئة رجل حسن الثياب طيب الرائحة، فيسأله من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح.

وعلىٰ النقيض من ذلك أرواح أهل الشقاوة، فإنها تعذب في حفرة من حفر النيران، ويضيق علىٰ أحدهم في قبره حتىٰ تختلف أضلاعه، -نسأل الله ﷻ ألا يبتلينا بهذا البلاء-.

وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ وَيُسْأَلُونَ، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾.

هذه المسألة تقدمت الإشارة إليها حين ذكر البرزخ، وفصل القول فيها أن عموم المؤمنين يفتنون في قبورهم ويسألون، واختلف أهل العلم؛ هل هو حكم عام يعم الأنبياء؟

والمحققون من أهل السنة والجماعة ذهبوا إلىٰ: أن مسألة القبر وفتنته خاصة بالمؤمنين، فهي لا تعم الأنبياء ولا الشهداء.

وفتنة المؤمن في قبره: أن يُسأل عن ربه وعن دينه وعن الرجل الذي بُعث فيهم، فأما الذين آمنوا فيثبتهم الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

أما التثبيت في الحياة الدنيا: فهو عند الغرغرة، وحين ينتزع ملك الموت الروح، فمن ثبته الله فإنه ينطقه بقول: «**لا إله إلا الله**»، فمن كان آخر كلامه في الدنيا «لا إله إلا الله» دخل الجنة، -نسأل الله ﷻ أن يجري علىٰ ألسنتا نطق كلمة التوحيد، وأن يوفقنا لحسن النطق بها بمنه وكرمه-.

والثبات في الآخرة وفي القبر: حين يسأله الملكان الشديدان فينتهرانه، ويقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، وما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، ومن هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: ما علمك؟ قال: قرأت كتاب الله وصدقته، فهذا هو الثبات الذي يثبت به العبد.

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، الظالم كلٌّ من ظلم نفسه بالكفور أو بالفجور، فإنه يقول: ها، ها، لا أدري، سمعت الناس

يقولون شيئًا فقلته، فلا هو الذي يُثَبَّتُ بالنطق بشهادة التوحيد ساعة الموت كما هو شأن الأبرار، ولا بخلاصه من عذاب النار حين تفتح له نافذة إلىٰ النار، ويضيق عليه في قبره حتىٰ تختلف أضلاعه.

وثمة مسألة من فتنة القبر وهي: ضمة القبر: لمَّا وُسِّدَ سعد بن معاذ ﷺ في قبره الذي اهتز له عرش الرحمن بموته، جعل النبي ﷺ وهو علىٰ شفير قبره يسبح الله ويكبره حتىٰ خشي الصحابة علىٰ سعد بن معاذ، ظنوا أنه أصيب بمصاب، فلا زال النبي ﷺ يسبح ويكبر حتىٰ تهلل وجهه، فقال النبي ﷺ: «**لقد تضايق هذا القبر علىٰ هذا الرجل الصالح، حتىٰ كادت أضلاعه أن تختلف، ثم فرج عنه**»[(١)]، وهذا يدل علىٰ أن هذا التضييق يعم كل أحد، لكن تضييق القبر علىٰ الأبرار ليس كتضييق القبر علىٰ الفجار، شبه بعض أهل العلم تضييق القبر علىٰ الأبرار، كمن يقدم علىٰ أهله بعد سفر طويل فيعانقه بعضُ أهله معانقةً شديدةً، يجد ألمها لكنه لا يتأذىٰ منها؛ لأنه يعلم أنها معانقة محب.

وعلىٰ الضد من ذلك من يعانق بشدة حتىٰ يرىٰ الموت وما هو بميت، وهي ضمة القبر للفاجر، -نسأل الله ﷻ أن يعافينا وإياكم من هذه الفتنة-، التي قال النبي ﷺ لأصحابه: «**لقد أوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم، كفتنتكم في الدجال أو أشد**»[(٢)]، فهي فتنة عظيمة، -نسأل الله ﷻ أن يثبتنا فيها، وأن يتولانا ﷻ بفضله وكرمه-.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ح١٥١٠٢)، وضعفه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ح١٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ح٨٦).

وَأَنَّ عَلَى الْعِبَادِ حَفَظَةً يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ، ولا يَسْقُطُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَنْ عِلْمِ رَبِّهِمْ، وَأَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ يَقْبِضُ الأَرْوَاحَ بِإِذْنِ رَبِّهِ.

هذه المسألة فيها إجمال الإيمان بالملائكة، والإمام ابن أبي زيد القيرواني ما التزم في مقدمة رسالته أن يأتي بأركان الإيمان وفق ما جاء في حديث جبريل عليه السلام من البدء بالإيمان بالله تعالىٰ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، وإنما أدخل مباحث الإيمان بعضها مع بعض، وهذا من الأساليب التي ربما تشوق في مطالعة هذا المعتقد، فربما أدخل بعض المباحث علىٰ بعض.

ولا شك أن مباحث الإيمان آخذ بعضها ببعض، وكل مبحث من هذه المباحث وكل ركن من هذه الأركان يدل علىٰ ما وراءه، ويؤكد ويقرر ما قبله، فذكر هنا الإيمان بالملائكة.

والإيمان بالملائكة منه ما هو إيمان مجمل، ومنه ما هو إيمان مفصل.

فمن الإيمان المجمل: اعتقادنا أن الملائكة خَلْقٌ من خلق الله، خلقهم الله من نور، وأن الله ﷻ زينهم بالأجنحة، وأن الله ﷻ قد خصهم بخصائص؛ فكل واحد منهم له مقام معلوم، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأنهم يسبحون الله الليل والنهار لا يفترون، كل ذلك من الإيمان المجمل.

أما الإيمان المفصل: فقد جاءت تفاصيله في النصوص الشرعية، من ذلك علىٰ سبيل المثال أن جبريل عليه السلام له ستمائة جناح، وأنهم يتفاوتون في أجنحتهم علىٰ قدر تفاوتهم في منزلتهم؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾

[فاطر: ١]، فتزايدهم في الأجنحة علىٰ علو منزلتهم ورفعة درجاتهم.

ومن الإيمان التفصيلي: أنهم يتفاوتون في الفضل، فأفضلهم من حيث الجملة من شهد بدرًا، كما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ: «**ما تعدون أهل بدر؟**» قال ﷺ: «**خير أصحابنا**» قال: «**كذلك من شهدها من الملائكة**»(١).

ومن الإيمان المفصل: أن أفضل الملائكة علىٰ الإطلاق هم من وكلوا بالحياة، ومنهم جبريل عليه السلام الذي وكل بحياة القلوب، وميكائيل الذي وكل بحياة الأرض، وإسرافيل الذي وكل بحياة الأجساد، وهم الملائكة الثلاث الذين كان يتوسل النبي ﷺ إلىٰ ربه بربوبيته لهم، فكان ﷺ كما في صحيح مسلم إذا قام من الليل يستفتح صلاته بهذا الدعاء: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي إلىٰ صراط مستقيم**»(٢).

ومن الإيمان المفصل: أن الرب جل جلاله أقدرهم علىٰ الإتيان إلىٰ البشر علىٰ هيئة بشر، لكنهم يأتون علىٰ هيئة جميلة، كما جاءوا إلىٰ إبراهيم عليه السلام، وكما جاءوا إلىٰ لوط عليه السلام في صورة شبان حسان الوجوه، وكما جاء النبيَّ ﷺ جبريلُ علىٰ هيئة وصورة دحية الكلبي.

ويشاكلهم في هذا التشكل الجن، لكن الفرقان بين تشكل الجن وتشكل الملائكة، أن تشكل الملائكة علىٰ هيئة حسنة وجميلة، وتشكل الجن ربما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ح٣٩٩٢).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٥/ح٣٤٢٠)، والنسائي في سننه (١/ح١٦٢٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٧/ح٣٤٢٠).

كان علىٰ هذه الهيئة، وربما كان علىٰ هيئة قبيحة، وربما كان علىٰ هيئة الحيوانات، بل علىٰ هيئة أدنىٰ الحيوانات منزلةً وقدرًا.

ومن الإيمان المفصل: أنهم خلقٌ لا يعلم عددَهم إلا الله، كما يدل علىٰ ذلك حديث البيت المعمور، والبيت المعمور في السماء السابعة حيال الكعبة، أي فوق الكعبة، لو سقط البيت المعمور من السماء السابعة لسقط علىٰ الكعبة، هذا البيت يدخله سبعون ألف ملك لا يعودون آخرُ ما عليهم، يدخل البيت مرةً واحدةً في عمره منذ أن خلقهم الله تعالىٰ، ومنهم من هو موكل بالوحي، وهو جبريل عليه السلام، ومنهم من هو موكل بالقطر -وهو المطر- وهو ميكائيل عليه السلام، ومنهم من هو موكل بالنفخ في الصور وهو إسرافيل، ومنهم من هو موكل بقبض الأرواح، وهو ملك الموت -هذا اسمه في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة، أما تسميته بعزرائيل فلم يرد لها ذكر إلا في بعض الروايات الإسرائيلية-.

والملائكة منهم من له اسم، ومنهم من يسمىٰ بوصفه، مثل ملك الموت، ملك الجبال، ملك الأرحام، ملك الريح، فهؤلاء يسمون بما وكلوا به من أعمال.

فالواجب علينا أن نؤمن بالملائكة وأن نحبهم، وكيف لا نحبهم وهم رسل الله لنا، كما قال جل جلاله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ - ٩].

وقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

كيف لا نحب الملائكة وهذا حالهم، وهم يلهجون بدعاء الله ﷻ أن يغفر لنا وأن يتوب علينا، وأن يدخلنا الجنة، وأن يقينا من النار، ولا يزال هذا لهجهم بالدعاء وديدنهم الاستغفار، حتىٰ يصير يوم القيامة وهم واقفون علىٰ أبواب الجنة، يحيون أصحاب الجنة، ويهنئونهم بدخولها بفضل الله ورحمته.

من هؤلاء الملائكة من ذكرهم بالحفظة، وحفظ الملائكة علىٰ قسمين، الحفظ العام والحفظ الخاص، الحفظ العام وهم الموكلون بحفظ أعمالنا؛ قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨]، والحفظ الخاص من حفظ الله، «**احفظ الله يحفظك**»[(١)]، من قرأ آية الكرسي إذا أوىٰ إلىٰ الفراش من الليل، فلا يزال عليه من الله حافظ أي مَلَك، ولا يقربه شيطان حتىٰ يصبح، فمن ذكر الله في الصباح وفي المساء، يكون عليه حفظة قد اختصوا بحفظه، غير الحفظة الذين يحفظون عليه أعماله خيرها وشرها.

والملائكة الحفظة الحفظ العام، لا يغادرون صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصوها، حتىٰ ما يسقط من ورقة فإنه يحصىٰ في كتبهم، قال تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فهؤلاء من وكلوا بالحفظ العام.

---

(١) سبق تخريجه.

ومن جملة من ذكرهم من الملائكة ملكُ الموت، وملك الموت ذُكر بهذا الوصف، والموت تارةً ينسبه الرب ﷻ لنفسه؛ لقوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وتارةً ينسبه إلىٰ ملك الموت؛ لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]، وتارةً يضاف إلىٰ الملائكة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

كيف نجمع ما بين هذه الإضافات الثلاثة؟

الجمع بين ذلك: أن إضافة الموت إلىٰ الله إضافة إذن ومشيئة وإرادة بقبض هذه الروح، فلا يَقبِضُ ملكُ الموت روحَ عبدٍ من عباد الله تعالىٰ إلا بعد أن يأذن الله له، وإضافة الموت إلىٰ ملك الموت إضافة نزع من الجسد، ينتزع روح المؤمن كقطرة تسكب من فيِّ السقاء تخرج بسلاسة وسهولة، هكذا روح المؤمن البار، وينتزع ملك الموت روح الكافر كالحديدة السفود[١] في الصوف المبلول تنتزع بشدة، ويضاف الموت إلىٰ الملائكة بحسب حال المتوفىٰ، فإن كان المتوفىٰ من الأبرار كان قرين ملك الموت ملائكة الرحمة، وإذا كان المتوفىٰ من الفجار كان قرين ملك الموت ملائكة العذاب.

ونختم بمسألة فضائل الصحابة ﷺ الذين وصلتنا النصوص الشرعية والعقائد المرضية بواسطتهم -رضي الله عنهم أجمعين-.

(١) حديدة كثيرة الشعب.

وَأَنَّ خَيْرَ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِينَ رَأَوْا رسول اللهِ ﷺ وَآمَنُوا بِهِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم.

وَأَفْضَلُ الصَّحَابَةِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ: أبو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ ثُمَّ عُثْمَانُ ثُمَّ عَلِيٌّ رضي الله عنهم أجمعين.

وَأَلاَّ يُذْكَرَ أَحَدٌ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلاَّ بِأَحْسَنِ ذِكْرٍ. وَالإِمْسَاكُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَأَنَّهُمْ أَحَقُّ النَّاسِ أَنْ يُلْتَمَسَ لَهُمْ أَحْسَنُ الْمَخَارِجِ، وَيُظَنَّ بِهِمْ أَحْسَنُ الْمَذَاهِبِ.

هذا اعتقاد أهل السنة والجماعة في أصحاب النبي ﷺ ولا حَظَّ لأحد في اعتقاد السنة ولزوم الجماعة إذا وجد في قلبه أدنىٰ من مثقال حبة خردل من غل علىٰ أحد من أصحاب النبي ﷺ، فربنا ﷻ لما ذكر المهاجرين ثم أتبعهم بالأنصار -كما جاء في سورة الحشر- جاء ذكر من جاء بعدهم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

فكل من وجد في قلبه أدنىٰ مثقال حبة خردل من غل علىٰ واحد من أصحاب النبي ﷺ فقد فارق السنة وباين الجماعة وليس له حظ من هذا المعتقد، فهم بوابة هذا الاعتقاد، وهذا الاعتقاد الذي ندرسه بوابته التي يدخل منها الداخلون ويلج منها المعتقدون هي اعتقادهم في أصحاب النبي ﷺ الذين هم خير القرون، أصحاب النبي الذين قيدت صحبتهم بهذه القيود الثلاث، من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات علىٰ ذلك، من لقيه حتىٰ يدخل في ذلك من لقي النبي ﷺ من المبصرين ومن غير المبصرين، وكلنا يعلم أن من

وَالطَّاعَةُ لأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ وُلاَةِ أُمُورِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ، وَاتِّبَاعُ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَاقْتِفَاءُ آثَارِهِمْ، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمْ، وَتَرْكُ الْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ فِي الدِّينِ، وَتَرْكُ كُلِّ مَا أَحْدَثَهُ الْمُحْدِثُونَ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

غير المبصرين ممن آمن بالنبي ﷺ مؤذن رسول الله ﷺ وهو عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه، وأبو قحافة عثمان والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فإنه ما رأىٰ النبي ﷺ وهو صحابي وابنه صحابي وحبيب لعله وحفيده صحابي، لم توجد هذه الخصلة في أحد من الصحابة، فاجتمع في الأجداد والأبناء والأحفاد.

ومما يتعلق بهذا الباب: ما ذكره من اعتقاد أهل السنة والجماعة أن الصحابة رضي الله عنهم يتفاضلون، فالمهاجرون أفضل من الأنصار، وأفضل المهاجرين هم العشرة المبشرون بالجنة، وأفضل العشرة المبشرون بالجنة هم الخلفاء الأربعة الراشدون والأئمة الحنفاء المهديون أولو الفضل الجلي والقدر العلي؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، وخير الأربعة من أشار إليهم النبي ﷺ بقوله: «**اقتدوا باللذين من بعدي، أبو بكر وعمر**»[(١)]، وخير الاثنين أبو بكر، الذي قال النبي ﷺ: «**لو كنت متخذًا في الدنيا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا**»[(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٦/ح٤٠٣١)، والحاكم في المستدرك (٣/ح٤٤٧٧)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٨/ح٣٦٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ح٣٦٥٦)، ومسلم في صحيحه (٧/ح٢٣٨٣).

وأهل السنة والجماعة يعتقدون أن أصحاب النبي ﷺ كلهم عدول، لذلك من قواعد المحدثين أن الراوي إذا أبهم بأن هذا يعود علىٰ الحديث بالضعف إلا الصحابي، فإذا أبهمه التابعي فقال عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ فإن هذا لا يقدح في الحديث أبدًا؛ فإن أصحاب النبي ﷺ كلهم عدول وكلهم موثقون، وتلقيت منهم الأحاديث بالتسليم والقبول.

ومما يلحق بهذا الباب: هو وجوب محبة أصحاب النبي ﷺ والترضي عنهم والإمساك عما شجر بينهم، وأن نحمد الله ﷻ علىٰ أن سلمت أيدينا من دمائهم، ونسأله ﷻ أن يسلم ألسنتنا من أعراضهم، وألا يبتلينا بالخوض في عرض واحدٍ منهم، وأن يتوفانا ﷻ ونحن قد أودعنا قلوبنا محبتهم، وألسنتنا الترضي عليهم وسؤال الله ﷻ أن يحشرنا معهم.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥

ترجمة ابن أبي زيد القيرواني ١٠

ترجمة الدكتور وليد العلي ١٥

المقدمة ٢٥

باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات ٣١

باب: ما تعتقده القلوب وتنطق به الألسن من واجب أمور الديانات . ٧١

فصل في الإيمان بالقدر خيره وشره ١٢٣

فصل في عذاب القبر ١٢٥

فصل في البعث بعد الموت والجزاء ١٢٧